د. علي بن عيسى الزهراني

علّمني أبي

دار اليتيمة

عَلَّمَنِي أَبِي

التَّعْلِيمُ وَالتَّرْبِيَةُ بِالقِصَصِ مَهَارَةٌ
كَانَ وَالِدِي -رَحِمَهُ اللَّهُ- يُجِيدُهَا

عَلِيّ بن عِيسَى الزَّهْرَانِيّ

الطَّبعة الأولى ١٤٤٦هـ-٢٠٢٥م

ⓒ علي بن عيسى الزهراني ، ١٤٤٦هـ

الزهراني ، علي بن عيسى أحمد
علمني أبي. / علي بن عيسى أحمد الزهراني - ط١ . -. الطائف
، ١٤٤٦هـ

١٦٧ ص ؛ c5 سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١٣١١٧
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-٤٨٩١-٠٠

إهداء

إلى مصدر قُوَّتي وحَزْمي وعَزْمي وصَبْري ومُصَابرتي وإصْرَاري، ومَنْ زرعَ في نفسي الحِكَم النَّيّرة، والأفكار الخيّرة..

والدي/ عيسى

أثابَكَ اللهُ، ورفع مَقَامك في أعلى عليّين، مع النَّبيّن والصّديقين والشُّهداء والصَّالحين.. آمين.

إلى أمّي الحبيبة.. نبعُ الحنان والعطف، بأخلاقك العالية، وصبرك وتحمُّلك، ملأتِ نفسي أملًا وإقدامًا، وشموخًا واعتزازًا، أثابك الله وجعل الفردوس الأعلى مأواك.. آمين.

إلى أمّي الحبيبة الثّانية.. أم سعيد، بحُبّك وحنانك وعطفك عرفتُ معنى الحياة، أمدَّ الله في عمرك، وأسعدك في الدّارين إنّه سميعٌ مُجيب.. آمين.

إلى إخوتي وأخواتي، وقد عِشْنَا معًا هذه الذّكريات العَطِرة برفقة والديّ - تغمدهما الله بواسع رحمته- كُنتم الجزء الجميل من هذه الذّكريات، أسعدكم الله، وزادكم توفيقًا.. آمين.

إلى جوهرتي الغالية، ودُرَّتي الثَّمينة، زوجتي الفاضلة، التي تحمَّلتني، وصبرت على شُغلي وانشغالي، وهيَّأت كُلَّ أسباب الرَّاحة والطَّمأنينة، جزاك الله عني خير الجزاء.

إلى أبنائي من بنين وبنات وأحفاد، امتدادي وامتداد والديَّ -تغمدهما الله بواسع رحمته- أنتم أجمل هدية من الله، أسعدكم الله، وعاملكم بعونه وتوفيقه، وأخُصُّ ابنتي الدُّكتورة (وفاء)، التي راجعت وصحَّحت ودقَّقت هذا العمل بإتقان، أسعدك الله في الدَّارين.

إلى جميع أصول وفروع هذه الشَّجرة المُباركة، كُلُّكم شُركاء في تكوين هذا المُحتوى، بارك الله فيكم، وجمعنا في جنَّات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مُقتدر.

إلى كلّ من شارك بالقراءة والتَّعليق، أو الإضافة والتَّعديل، جزاكم الله خيرًا، وأحسن مثواكم.

مُقَدِّمَة

الحمد لله القائل:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف - الآية٣].

والقائل:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف - الآية ١١١].

والقائل:

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف - الآية ١٧٦].

والقائل:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة - الآية ٢].

والصَّلاة والسَّلام على خير خلق الله، مُحمَّد بن عبد الله، النّبي الأُمّي، المُعلّم والمُربّي والقائد، والأب والزّوج، والأخ والصّديق، الأُسوة لكلّ فردٍ في الأُمّة، المبعُوث رحمةً للعالمين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء - الآية ١٠٧].

فقد كان للقصص في تعليمه وتربيته -لأصحابه وأُمّته- أوفر النّصيب، فقصّةُ الرّجل الذي سقى السّحابُ أرضَه، وقصّة جرير الزّاهد من بني إسرائيل، وقصّة الرّجل الذي يُداين الناس، وقصّة المرأة التي سقت الكلب، وقصة الثّلاثة نفر من بني إسرائيل، وغيرها مِنَ القصص

الَّتي كان لها وقعًا في النُّفوس، ولها من الأثر في الاقتداء والعبرة-ما لا يحصلُ بالموعظة والنُّصح، فعليه وآله أفضل الصلاة وأزكى التَّسليم، وبعد..

فتربيةُ الأبناء واجب الأُسرة، وغاية الأُمَّة، وهدفٌ من أهداف منشآت المجتمع المُتنوّعة، كالمسجد، والإعلام، والمدرسة، والأندية، ومراكز الأحياء، وغيرها.

ولكنّ الأسرة تتصدَّر جميع منشآت المجتمع، ولا تستغني عن أحدٍ منها، ولا تُقلّل من دوره.

وإنَّما تبقى الأُسرة في ثغرةٍ لا يسدُّها أحدٌ سواها، وعليها أمانة لا يقومُ بها أحدٌ غيرها، وحقبةٌ من عُمْر الطّفل لا يرعاهُ أحدٌ مثلها، ودورُ الأبوين يكمّل أحدُهما الآخر.

فحاجة الولدُ إلى أبيه أكثرُ من حاجته لأُمّه في بعض شأنه، وحاجةُ البنت إلى أُمّها أشدُّ من حاجتها إلى أبيها في بعض شأنها.

وكلٌّ من الوالدين له دورٌ مع الولد والبنت لا يقوم به الآخر، والصَّواب أنَّهما يتآزران على القيام بتلك الأدوار المُكمّلة لبعضها، فهما شريكان متناغمان، يجمعهما هدفٌ سامٍ.

فالأُمُّ قدوة ابنتها، وهي مربيتها وصانعتها؛ لتكون حُرَّة تفخر بها أُمّتها، وزوجةً يسعدُ بها زوجها، وأُمًّا تصنع جيلًا يُشار إليه بالبَنان.

والأُمّ بطاعتها لزوجها، وحُبّها وحنانها لأطفالها، وحرصها على نظافة بيتها، وتوزيع الأدوار على أبنائها، وإشراكهم في إحضار الطَّعام، وغسل الأطباق، واهتمام كلّ فردٍ بلباسه وفراشه وأدواته، واحترام كل فردٍ لخصوصيَّة أخيه وأخته، وتعليمهم آداب الدُّخول والاستئذان، وتتنقّلُ الأُم في مهامها ما بين دور القيادة لأفراد الأُسرة، إلى التَّبعية للقائد الأوّل (الأب)، كل هذا وغيره يُعدُّ من صميم التَّربية بالقدوة لا

بالقول، بالفعل لا بالتَّنظير، بالتَّرويض لا بالوعظ والإرشاد، ولا بالنُّصح المُجَّرد.

والأبُ كذلك، هو قدوةٌ الولد، وهو من يصنعُ رُجولته، ومن يُعدّه ليكونَ قائدًا حنونًا، رحيمًا، صلبًا، صبورًا.

فالأبُ يضربُ لابنه المثل الأعلى للقائد الحنون الرَّحيم، ويستوصي به خيرًا في أُمّه وأُخته، ويصنع منه فتًى صلبًا صبورًا يمتصُّ غضب الآخرين، ويراعي انفعالاتهم، ويجبرُ بخواطرهم.

والأبُ يُنمّي الرُّجولة في ابنه عندما يَحِنُّ على أُمّه وأخواته، وعندما يضع اللُّقمة في فِي زوجته[1]، وعندما يكون في مهنة أهله، وعندما يُثني على الطَّعام مُشِيدًا بجهود أُمّهم، حاثًّا لهم على المشاركة في ذلك، وعندما يلتمسُ لها عذرًا في الخطأ والتَّقصير.

يتآزر الأب مع الأم في كلّ ذلك، ويُوزّعان أدوار القيادة والمسؤولية والإدارة على أفراد الأسرة، فيتعلّمون بذلك التَّخطيط ورسم الأهداف، وتوزيع المهام، وتحديد الأولويّات.

الأب القائد.. يُربّي، ويُعلّم، ويُوجّه بالقِصّة، والثَّناء، والمُنافسة، والتَّرغيب، والتَّرهيب، ومراقبة الله ﷻ؛ ليَصنعَ جيلًا تفخرُ بهم الأمّة.

والتَّقارب بين الزَّوجين في المستوى التَّعليميّ والثَّقافيّ والفكريّ يساعدُ في ذلك كثيرًا، وفي حال البَون الشَّاسع بينهما يقع العبء على عاتق الأعْقل والأعْلم والأعْلى في المستوى التَّعليميّ والفكريّ وغيرها؛ في احتواء الآخَر والتَّبسُّط معه، وتعليمه وتثقيفه بشتَّى الطُّرق، مع حفظ كرامته ومراعاة نفسيَّته، والبعد عن جرحه أو الانتقاص من

---

١ حديث: "إنَّك لن تُنفِق نفقةً تبتغي بها وجهَ اللهِ عزَّ وجلَّ إلَّا أُجِرْتَ بها حتَّى ما تجعلُ في فمِ امرأتِك" الراوي: سعد بن أبي وقاص [المحدث: الألباني] المصدر: صحيح الأدب المفرد، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

قدْره، وهذا الأمر ليس بالهيّن، والشّيطان لن يُمرِّرهُ بسهولة، ولكنّه جهادٌ يُؤجران عليه.

وأذكُر هنا أبي -رحمه الله رحمة واسعة- الذي علّمني الكثير والكثير، وكأنّي به وهو يعني كل كلمةٍ قالها، وكل فعلٍ فعله، وأشعرُ بأنّني المَعنيُّ بها.

فكانت قصصهُ -الّتي يُسلّي بها ضيوفه- تُعلّمنا درسًا بل دُروسًا عِدّة، ومن تكرارها استوعبتُها وأدركتُ الغاية منها، فتشكّل بها خُلُقي، وشخصيّتي، وقِيَمي، وتعامُلي، وقد أوردتُ بعضًا منها في صفحات كتابي.

بل وحفظتها من كثرة تكرارها، ولن أملّ من استدعائها كلّما دعت الحاجة إليها؛ لأنّ والدي كان يُضفي عليها شيئًا من الدّراما والتّشويق، وأنا أرقبُ أعين الضُّيوف، وإيماءات ملامحهم ومشاعرهم أثناء سردِه.

وكنت أُذكّر والدي -أحيانًا- بقولي: وقصة فلان؟ فيشرعُ بسردها بأُسلوبه المُميّز وكأنّها حدثت لليلتها.

ولا أذكرُ يومًا قلتُ له: "وقصة فلان"، ولم يسردها لضيفه.

تلك القصص منها ما حصل له شخصيًّا، يذكرُ أصحابها وزمانها ومكانها، ومنها ما سمعهُ من جدّي -رحمه الله- أومن غيره، ومنها ما سمعهُ من تداول المجتمع لها، ومنها ما هو مُختلَقٌ منه؛ ليرسّخ قيمةً، ويرسم طريقًا، ويُحذّر من خطرٍ مُتوقّع.

وكانت كلُّ قصةٍ خيرٌ من كتاب، وأبلَغُ من تعليم سنين في المدرسة؛ وذلك لأنّها من واقع الحياة المُعاش، ولأجل حياةٍ مُستقبليّة.

وفي الحقيقة أنّ أبناءنا يتعلّمون من أفعالنا أضعافَ ما يتعلمون من حديثنا، ونصحنا، وإرشادنا.

وحتى نرسمَ سعادة الأُسرة، ونُتقن صناعة اللَّبنة، يجبُ علينا أن نُؤهِّل الوالدين للوالِديَّة المُثلى؛ بمعرفة الغاية من تكوين الأُسرة، وماهيَّة رسالتها، فإن أدركا ذلك تجاوزا الصِّعاب والظُّروف، وتفطَّنا للفرق بين: (الرِّعاية، والتَّربية، والهداية).

فالرِّعاية: يقوم بها كل كائن حي، الإنسان والحيوان على السَّواء، بل إنَّ هناك حيواناتٌ تتفوَّق -في الرِّعاية- حتَّى على الإنسان، وفي المُقابل هناك حيواناتٌ لا تقومُ بالرِّعاية أصلًا بفطرتها، فلا تعرفُ الأمُ صغارَها، ولا تعرفُ أصولَها كبعض الأسماك والطُّيور.

وتعدُّ فترة طفولة الإنسان أطولُ فترات الطُّفولة بين المخلوقات، وفيها يعتمدُ المولود على والده بشكلٍ كُلِّيّ، وهي فرصةٌ ذهبيَّة للوالد في برمجة ولده بما نُسميه (التَّربية).

وتكونُ الرِّعاية مُجرَّدةً في الإطعام، والإيواء، واللِّباس، والحماية... إلخ.

أمَّا التَّربية: فينفردُ بها الإنسان، يُعلِّم الوالدُ ولدَه القِيَم، والآداب، والمعتقدات، والمهارات الحياتيَّة، والثَّقافات، وغيرها من الأعراف، مُستغلًّا بذلك طول فترة الطُّفولة والمُصاحَبة، ويُقال إنَّ ٩٠٪ من القيم تُغرَس في السَّبع سنوات الأُولى من عُمر الطِّفل، بينما ١٠٪ منها يكون ما بين ٧ سنوات إلى ١٨ سنة.

لذا يجبُ على الوالدين -وخاصَّة الأم- الاعتناء بمرحلة السَّبع سنواتٍ الأُولى في حياة الطِّفل.

وأمَّا الهداية: فهذه شأن الله ومنحته، وخيرته وفضله، يمنُّ بها على من يشاء من عباده؛ لحكمةٍ منه وتقدير.

وختمتُ كلّ قصةٍ ببعض **الفوائد التَّربويَّة**، مما تبادر إلى ذهني حين سماعها لأوَّل مرَّة، أو حين تكرارها، -وكما أسلفتُ- كنتُ أحسبُ أنَّ كلّ قصَّةٍ يوردها أبي -رحمه الله- هي رسالةٌ من أجلي، وأنا المَعنيُّ بها، من باب: **إيَّاكِ أعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَة**.

وقد أوردتُ بعض ما خطر ببالي، وتركتُ مساحةً للقارئ؛ ليضيفَ فوائد أخرى عندما يتقمَّصُ شخصيَّة الأب المُعلِّم، والمُربِّي، والقائد الحكيم، أو يتمثَّلُ دور الابن الذَّكي الفَطِن الذي هو حُلْمُ أبيه.

١٤٤٣/١/١٤هـ

٢٠٢١/٨/٢٢م

تنويه: يمثِّل التَّاريخ أعلاه نقطة الانطلاق في تدوين هذا الكتاب.

وجبةٌ عشاءٍ في تُهَامَة

حكى لي والدي عن جدّي أحمد قائلًا: إذا عمَّ السَّراةُ جوعٌ كان ممَّن ينزل إلى تُهامة؛ وذلك للبحث عن لقمةٍ تُقيم صُلبه، وكان الحصول عليها إمَّا بضيافةٍ من المُحسنين المُوسرين، وإمَّا صدقةً ممَّن يصرمُ ثمره، وكان هذا هو ديدن النَّاس؛ يلجأ أهلُ السَّراة -بعد الله- إلى أهل تُهامة وقت القحط، وإذا حلَّت بهم مسْغبةً تنفَّسوا الصَّعداء في السَّراة.

فقصدَ ومعه أُناس -لا يعرفُ بعضهم بعضًا- أحدَ الأعيان في الكرم بتُهامة، واجتمع عنده بضعةَ عشر رجلًا.

وتكَّرم صاحبُ الدَّار -كعادته- وقدَّم لهم العَشَاء، وعادةً ما يكونُ قبلَ صلاة العِشاء -إن لم يكن قبيل المغرب-؛ وذلك لأنَّ النَّاس يكدُّون في حقولهم، ويرعون مواشيهم من بعد صلاة الفجر حتَّى قبيل الغروب، فهم بحاجةٍ إلى الدَّعة والرَّاحة استعدادًا ليوم عملٍ جديدٍ مع بزوغ شمسه.

وبعد أن تعشَّى الجميع -ممَّا قسم الله لهم-، سمعوا صوت طبلٍ (زير) يُقرَع، وهذا دليلٌ على أنَّ هناك عُرْسٌ أو مناسبةُ فرح، يكون فيها ما يُسمَّى بـ (الزَّار)، وهو نوعٌ من الرَّقص، يُصيب بعض من يقوم به مسٌّ من الشَّيطان، لدرجةٍ لا يرغبُ بتوقُّف الطَّبل حتَّى يُنهي منهُ نهمتَهُ، ويظهرُ أثر ذلك جليًّا على الرَّاقص، كمثل مَنْ يتخبَّطُهُ الشَّيطان من المسّ.

فكأنَّ الصَّوتَ حرَّك الرَّغبة لدى الضُّيوفَ بالمشاركة، لكنَّ المُضِيف -صاحب الدَّار- قال لهم: إنَّ من تُسوّلُ له نفسهُ بالحُضور يكونُ كَمَنْ يشهدُ زورًا؛ لبطلان ذلك عنده، وهو مع هذا لا يمنع أحدًا ألبتَّه، ولكن ليُعلمهم أنَّ من سيذهبُ لن يجدَ باب الدَّار مفتوحًا عند عودته، وعليه أن يبحثَ عن مكانٍ آخر للمبيت، إذِ العادةُ أن يتبعَ

المبيتُ العَشَاء، فكان هذا سببًا لبقائهم ومَبِيْتهم معًا، وأمَّا جدِّي (أحمد) فكان ممَّن يَمقُت العادات المُصاحِبة للرَّقص، ولا يحضُرها، بل ولا يحترمُ حاضرها؛ لأن الزَّار ليس كغيره من الرَّقصات الشَّعبية المعروفة بالمنطقة، والَّتي كانت تُمثِّلُ استعراضًا لمهارات وشجاعة أهل القرية، وحسنَ تنظيمهم وانضباطهم.

فوائدٌ تربويَّة:

١- الكرمُ، والجودُ، وإطعامُ الطَّعام، هي رزقٌ يسوقهُ الله لعباده، والسَّعادةُ كُلُّ السَّعادة في أن يمنَّ الله عليك ببذلها وعطائها لمحتاجيها في غير مِنَّة.

٢- تمسُّك الإنسان بقيمه، ومبادئه، وما كان صوابًا من عادات أهله، يدلُّ دلالةً قاطعةً على رجاحة عقله.

ريالٌ أضاعَ خمسين

يقولُ الوالدُ -رحمه الله-: كُنَّا نهبط السُّوق بالحُنطة فنجلبُ التَّمر والبُنّ، ونهبط السُّوق بالعنب والتّين فنجلب البُنّ واللَّحم، فكانت طريقة الشّراء بالمُقايضة لعدم توفُّر النُّقود.

يقولُ الوالد: كنتُ أعرف مصدر الحُنطة والبُنّ، والتَّمر واللَّحم، ولكنَّ الذي يُحيِّرني مصدرُ الرّيال.

فالبعض لديهم ريالاتٍ من الفضَّة مثلُ الرّيال الفرنسي (الفرانسة)، ومثلُ الرّيال العربيّ (السُّعوديّ)، يستعملونها في البيع والشّراء.

وأنا لا أدري كيف يحصُلون عليها؟ وأينَ مصدرها؟، لأنّي أريدُ أن أكونَ مثلهم، أملكُ تلك النُّقود فأشتري بها حاجتي من السُّوق.

فلم أجد مُبرّرًا في أنَّ البعض يبتاعُ بالمُقايضة، والبعضُ لديه نقودٌ كهذه.

فتبيَّن لي فيما بعد أنَّها تأتي من التّجارة، فرغبتُ في مُمارستها حتَّى أحصلَ على النُّقود.

فجعلتُ أقتطع من أشجار العَرْعَر الأغصان الغليظة فأصنعُ منها هراواتٍ ومشاعيب وعِصِيّ، وأهبطُ بها إلى السُّوق، وأُحصّل مقابل تلك البضاعة على ريالٍ من الفضَّة أو أكثر.

ثم أصبحتُ أشتري من أسواق تُهامة الملح[٢]، وأبيعه في أسواق السَّراة من غامد، حتى أصبحَ الرّيال الفضَّة مألوفًا عندي، ويتوفَّر معي.

يقولُ أبي: كنتُ أتعاملُ مع تاجرٍ في سوق رغدان في السَّراة، ولكنَّه شحيحٌ وحريصٌ، لا تجد السَّماحة في تعامُله.

---

[٢] علمت من أبي أن الاتجار بالملح عيبًا، ولكنه كان يُخفي شخصيَّته، ويتعاملُ مع مَنْ لا يعرفُه.

ففي يومٍ أتيتُ له ببضاعة قدّرها بخمسين ريالًا من الفضّة، سلّمتُه البضاعة وسلّمني الخمسين ريالًا.

غادرتُ متجره إلى طرف السُّوق وعددتُ المبلغ فوجدتُه إحدى وخمسون ريالًا، إذ أخطأ في العدّ، وزادني ريالًا دون قصدٍ منه، ولكنّه بدارجتنا -يستاهل- فهو بخيلٌ وشحيحٌ، ولن أُعيد له هذا الرّيال.

يقول: فرحتُ بالرّيال أكثرُ من فرحي بالخمسين؛ لأنّه أثلجَ صدري في شُحّه وحرصه.

عدتُ إلى البيت فرحًا مسرورًا بذلك الرّيال، وكنتُ قد وضعتُ النُّقود في جيبٍ على صدري -مدخلُه من حلق الثُّوب-، وكانت تظهرُ للعيان ولا يمكنُ إخفاؤها، فوزنها لا يقلُّ عن بضعة كيلو جرامات.

عند وصولي إلى البيت، لمحتُ أترابي يسبحون في البئر ويغتسلون منه، ولأنّي قادمٌ من السُّوق، وقد قطعتُ أكثرَ من عشرين كيلومترًا مشيًا على الأقدام، فلا شكَّ أنَّ السّباحة والاغتسال خيارٌ يليقُ بحالتي تلك.

حينها انطلقتُ إلى البئر دون تفكير أو تردُّد، وما إنْ وقفتُ على حافّة البئر حتّى خلعتُ ثوبي، وكنتُ قد نسيتُ النُّقود، ونسيتُ التّجارة، ولا يشغلُ تفكيري تلك اللّحظة إلّا عشقُ السّباحة، والتّخلُّص من أعباء المشي في يومٍ قائظ.

فما إنْ خلعتُ ثوبي إلّا وخلعتُ معه الواحد والخمسين ريالًا من فضةٍ، والتي كانت تعتبرُ دخْل أسبوعٍ بتعبه وعناه، ولن يجودَ الزّمان بمثلها -إن حصل- إلّا مرةً واحدةً في الأُسبوع؛ لأنَّ السُّوق لا يكون له يومٌ محدّد وثابت.

سقطت نقودي كاملةً واحدًة تلو الآخر في ماء البئر، وأنا وأصحابي ننظرُ إليها وهي تتموجُ يمنةً ويسرة، وكأنّها بصنيعها هذا تزيدُ من لوعتي وعنائي!

ولكنْ وبدون تردُّدٍ قذفتُ بنفسي خلفها، أغوصُ في الماء لعلّي أدركها كاملةً أو بعضها.

ولكنْ هيهات لم أُمسك منها بشيء.

فخرجتُ إلى أعلى البئر، ثمَّ قفزتُ لعلّي أحظى بشيءٍ منها، ولكن باءت مُحاولتي بالفشل الذَّريع كأوَّل مرّة.

كرّرتُ ذلك للمرّة الثّالثة على التّوالي دون يأسٍ أو ملل، ولكنّي في هاته المرّة قفزتُ قفزًا عاليًا حتّى أغوصَ لأبعد مسافةٍ؛ لعلّي أن أحظى ولو بنزرٍ قليلٍ من نُقودي، ولكن لم أُمسك بشيء، حينها آثرتُ الخروج والسّلامة، فكنتُ أنظرُ إلى أعلى فأرى نور الشّمس، ولكن هيهات أن أصلَ إلى سطح الماء.

كادت روحي أن تزهقَ هذه المرّة، ولكن نجوتُ -بلطف الله- وفقدتُ نُقودي.

حينها شعرتُ بل أيقنتُ أنَّ ذلك الرّيال -الحرام- قد محق بركة الخمسين -الحلال-.

فكانت درسًا قاسيًا لي، وتربيةً رسختْ معالمها في ذهني بأنَّ الحرام يمحقُ البركة والرّزق، وكان هذا الموقف مَكْسبي الكبير من تلك الصَّفقة، الّتي أسْهمت في خوفي ونُفوري من الحرام بحجم الموت الذي رأيتهُ وأنا أحاولُ الخروج من أعماق البئر، وكاد نَفَسِي أنْ ينقطع، بل انقطع فعلًا لدرجة اليأس، -فالحمدُ لله على ألطافه وعنايته-.

فوائدٌ تربويَّة:

١- التَّعامل مع الله وليس مع الخلق؛ فالمراقبةُ والخوفُ والتَّقوى تكون خالصةً لله وليس لأحدٍ من خلقه.

٢- من أحبَّه الله لقَّنه درسًا عابرًا ليكون له عظةً وعبْرة، ومن أبغضهُ أملى له وأمْهلهُ وزيَّن له؛ لكي يتمادى في طُغيانه فيأخذَهُ -على غِرَّة- أخذَ عزيزٍ مُقتدر.

٣- القليلُ من الحرام إذا دخل على الحلال محق بركته، وربَّما ذهبَ به كلَّه.

الخَبْتي في سُوْق

كان الوالد يعمل بالتّجارة البسيطة، -بعد أن عرف أنَّ الريال (الفضَّة) الذي يتداوله الناس في بيعهم وشرائهم- لا يمكنُ الحصول عليه إلّا عن طريق التّجارة.

يقول: بعد أن اشتريتُ بضاعتي من سوق في تهامة زهران، شرعتُ في التّجول بالسُّوق لعلّي أجدُ ما يُعجبني فيه.

وبينما أنا على هاته الحال، إذ برجلٍ من أهل الخَبْت -منطقةٌ بين تُهامة والسَّاحل- يُعرفُ أهلها بلون بشرتهم السّمراء، ولبسٍ خاصّ يرتدونه، أقبلَ الخَبتي يُسلّم عليّ ويُقبّلني بحرارة المُشتاق، وأخذ يسألُ عن صحّتي، وأهلي، وأخبار ديرتي، مُكرّرًا السُّؤال في كلّ مرَّة.

ومع كلّ سؤالٍ كان يضرب بكفّه على كتفي ضربًا مُؤلمًا، وهذه عادةٌ عند بعض الناس أصحاب (النّمط التّقاربي)؛ لا يحلُو الحديث إلّا بالمُلامسة مع المُستمع كنوعٍ من أنواع لغة الجسد، بينما أصحاب (النّمط التّباعُدي) يحلُو الحديث عندهم باختلاق مسافةٍ آمنةٍ بينه وبين المُستمع.

فتقبّلتُ هذا منهُ على مضض، ولكنّي لمحتُ أُناسًا يضحكون على المشهد، وعرفتُ أنّهم من معارفه، فلهم اللّبسَة والسَّحنة نفسها، فأدركتُ أنَّ صنيعهُ من باب السُّخرية، وكأنّهُ تراهنَ معهم على ضرب السّرويّ (من السّراة) وكلانا يضحك.

فحلّيتُ حِزامي وهو من (عصم) مثل الكرباج، مصنوعٌ من جلد الثّور، وقلتُ له: سألتَ عنّي، وعن أهلي وربعي وديارِي، فأحببتُ أنْ أسأل عن حالك وأهلك وديارك.

فضربتهُ بالحزام ضرباتٍ مُتتابعة حتّى سقط على وجهه، وعندها تكالبَ علينا أهلُ السُّوق يُفرّقون بيننا، ويُلقون القبض علينا.

كان المشهدُ أمام أحد العُقلاء من قريتي، وشهدَ حالنا منذُ البداية، وكان ينتظرُ منّي ردّة فعل، فحينما رآني أضربه وألقّنه درسًا أعجبَ بصنيعي، فدخل معَ مَن دخلَ لفكّ الاشتباك بيننا، ونهرني قائلًا: اخرج من السُّوق حالًا، وأشار إلى ربوةٍ مُرتفعةٍ تُشرف على السُّوق، فأدركتُ من نظراته أنّني ارتكبتُ محظورًا، وخالفتُ القِيم والقوانينَ الّتي تعارفَ عليها أهلُ السُّوق!

فتسلّلتُ من بينهم وخرجت خارج أسوار السُّوق، والنّاس تضربُ الخَبْيَتي وتجرّهُ إلى المسؤول عن السُّوق، فقد كان للسُّوق عقودٌ ومواثيق، وله قبائل تحميه من الخلافات، كما تحمي الهابطين له من الاعتداء عليهم، ويُسمُّون ذلك (حمى السُّوق)، حيثُ إنَّ السُّوق له ثلاثةُ أيامٍ لا يعتدي أحدٌ فيه على أحد؛ لضمان حضور النّاس إليه، ويكون المُعتدَى عليه في حماية أهل السُّوق، ويأخذُون بثأره.

وطفقَ النّاس يضربون الخَبْيَتي كلّما مرّ على مجموعةٍ منهم، فيقولون: أهذا الذي ضاربَ في السُّوق؟ فيضربونه، والنّاس في السُّوق كسيلٍ هادر يبحثون عنّي ولا يجدونَ لي أثرًا.

فجاء أحدُ أعيان قبيلتي وقال لي: -سَلِمَتْ يدَاك-، لقد رأيتُ ما حصل بينكما، ولو بقيتَ وأمسكَ بك أهلُ السُّوق لمَا نجوتَ مِنْ عقابهم، ثمَّ أحضرَ لي بضاعتي، وعُدنا إلى أهلينا سالمين غانمين والحمدُ لله.

فوائدٌ تربويّة:

١- قد تُبتلى بناقص عقلٍ في موطنٍ لا تملكُ أن تتعاملَ معهُ بما يليقُ به، فعليك أن تتصرّف بحكمةٍ حتى لا تكن في موقف يشُينك؛ لأنَّ اللّوم لا يقعُ إلّا على العاقل.

٢- النّظام الضّابط للأمن كعقود السُّوق مطلبٌ لكلّ مجتمعٍ مدنيّ.

٣- الكبيرُ والرّاشد والحكيم هم ملاذكُ وسندُكَ بعد الله.

٤- لستُ بالخِبّ ولا الخِبُّ يخدعُني.

حُصنُ تهامة والعَشَاء

يقولُ والدي: أصابَ النَّاس في السَّراة قحطٌ وجوعٌ ومسْغَبة، وكانَ القادرُ منهم ينزل إلى تهامة حيثُ الخير الوفير، أمَّا العاجز منهم فيبقى في السَّراة، يقتاتُ على ما تبقَّى من المؤونة، وعلى خشاش الأرض وما تنبتُ من زرع، حتَّى إنَّهم كانوا يأكلون مالا يُؤكل في العادة.

يقول: اتَّجه النَّاسُ إلى مَنْ مَنَّ اللهُ عليه بالكرم والنَّجدة، ومَنْ كان لديه فضلٌ من دخنٍ أو ذرةٍ، وغيرها مما تجودُ بها أرضُ تهامة.

قال: فقصدنا حصنًا فيها، وكُنَّا نرى الدخان يخرجُ من أعلاه، ووجدنا عندهُ أقْوام كُثْر، فعلمنا أنَّ ضيوفًا قدموا إلى صاحب الحُصُن المُكوّن من ثلاثة طوابق.

يكون الطَّابق الأرضيّ عادةً للدَّواب والحَطَب والطَّبخ، والطَّابق الثَّاني مجلسًا لأهل البيت ولنومهم، أمَّا الطَّابق الثَّالث فيكون مع السَّطح مجلسًا للضُّيوف وخاصَّة في ليل تهامة.

ولكنَّ صاحب الحُصُن أغلقَ بابه من الدَّاخل، وأجلسَ ضيوفه على سطح الحصن، ومنع مِنْ دخول الجوعَى، ومن يرغبُ في مجرَّد لقمةٍ تقيم صُلبه، وتسدُّ جوعه، ليس بُخلًا، وإنَّما هذه طاقتهُ في إكرام ضيوفه.

لكنَّ النَّاس تسلّقوا الحُصُن إلى أعلاه، ولم يمنعهم أحد، فلّما صعدَ صاحبُ الحُصُن وإذا بالعدد قد تضاعف، والنَّاس لازالت تصعدُ وتصْعد!

فما كانَ منهُ إلَّا أنْ وقفَ على زاوية الحُصُن ومنعهم قائلًا: أمَّا من وصلَ فقد وصَل، وأمَّا أنتم فالمعذرة منكُم، فقال أدناهم: قد وصلتُ يا عمّ، فقالَ: حتَّى أنت.

فجعل حُرَّاسًا على تلك الثَّغرة، وأخرجَ طعامهُ وهو عصيدة من حُبوب تهامة، في صِحَافٍ لا يَحملُها إلَّا الرَّجُلان على الأقل.

فأكلَ الجميعُ ممَّا تيسَّر لهم، ثمَّ اعتذر ممَّن حضرَ قائلًا: هذا رزقٌ قدْ كتبهُ الله لكم، وأمَّا اللَّحم فاعذرونا لأنَّه خاصَّةٌ لضيوفنا.

وكان والدي ممن طلعَ وتسلَّق حتى وصلَ وشاركَ في الأكل، لُقيماتٍ لا تتجاوزُ أصابعَ اليد الواحدة، لكنَّ لذَّتها ودِفئها تبقى ليالي وأيَّام.

قال: فنزلنا من دَرَج الحُصُن، وخرجنا من بابه، والنَّاسُ يُحيطون به من كلّ صَوْب.

ثمَّ أخرجَ لهم صاحبَ الحُصن ما تبقَّى من الطَّعام في صِحَافٍ، تكالبَ عليها القومُ كما تتكالبُ الوحوش على فريستها، ومَنْ استطاع الجلوس على الصَحْفة لا يستطيعُ القيام، ومَنْ لمْ يتسنَّ له الجُلوس خطفَ بيده خطفةً من فوق رُؤوسهم، وذهب بعيدًا ليأكلها، وكأنَّهُ مِنْ القِطَط البرِّيَّة.

وما هي إلَّا كلمح البصر أو هُو أقْرب، وإذا بالصَّحْفة كأنْ لم يكن بها طعامًا، والنَّاس تحمدُ الله وتشكرهُ، وتدعو للمُضِيف على حُسن ضيافته وكرمه.

فوائدٌ تربويَّة:

١- لله حكمةٌ بالغةٌ في مداولة الأيَّام بين النَّاس، فيفتحُ لمن يشاء، ويَقْدِر على من يشاء، وكُلّ هذا ابتلاءٌ للطَّرفين.

٢- الجوع يُخرج المرء عن طَوْره، ويُفقده صبره؛ فالرُّوح غالية، والحِفاظ عليها مِنْ ضرورات الشَّرع الخمس.

٣- إذا كتب الله لك رزقًا فسيصلك إنْ سعيت له؛ لأنَّ الرِّزقَ منوطٌ بالسَّعي.

عَشاءٌ في أسفل العقبة في جُنْح الظلام

يقولُ والدي: بعد أن طافَ بقُرى تُهامة بحثًا عن لُقمةٍ يسدُّ بها جوعه، يحصلُ عليها الواحدُ إمَّا بضيافةٍ، وإمَّا بمقابل خدماتٍ يُقدّمها، وذاتَ يومٍ أحبَّ أن يعودَ للسَّراة، فتوجَّه إلى العقبة المُؤدِّية لها، ودخل القرية على وجه التَّحديد.

وفي أسفل العَقبة بلغَ به الجوعُ مَبْلَغه، وشاهدَ في ليلٍ دامس رجلًا وزوجته، كانَا يجلسان حول قصعةٍ يأكلان منها، فتسلَّل بصمتٍ وجلس إلى القَصْعَة دون أن ينبسَ ببنت شفة، فتعجَّبت المرأة مِنْ وُجوده، وكان غلامًا صغيرًا نحيلًا، فسمَّت بالله وهي خائفة ظنًّا منها أنَّه مِنْ الجِنّ، فكانت تُردِّد باسم الله، أأنتَ إنسيٌّ أمْ جِنّي؟! وكانَ والدي لا يردُّ عليها؛ لأنَّ الرَّد يُعطّله عن الطّعام، ويُؤخّر عنه لقمةً أو لُقمتين، لذا قرَّر أنْ يأكلَ بصمْت.

وشعرَ الزَّوجُ بأن زوجتهُ أصابها الهَلعُ، فقال لها: لا تخافي هذا ليس بجنّي، وإنَّما ذاكَ هو الجُوع.

وعندما اطمأنَّ الوالدُ بأنَّهم لن يزجروهُ عن الطَّعام، بدأ يردُّ على أسئلتهم: من أين قدومك؟ وأين هي وجهتك؟ فأخبرهم بذلك وشكرَ لهم حُسنَ الضّيافة، ودعا لهم بالرّزق العميم، وغادرَ وهو يُتمتمُ بدعواتٍ على بضع لقيمات، علّها أنْ تُساعدُه في صُعود العقبة الّتي لا يقلُّ تجاوزها عنْ السَّاعتين أو أكْثر، سيْرًا على الأقدام في ظلْمة اللّيل البهيم، الّذي لا يُرى فيه سوى ضوء النُّجوم، ومعها يكون الطَّريق واضحًا وكأنَّه مرشوشٌ بالفسفور المُضيء، مما يُسهّل على السّاري ألّا تزلّ قدَمُهُ عن الطَّريق.

ثُمَّ غادرهم مُتّجهًا إلى والده في السَّراة (جدّي) لعلَّ حال القرية تحسَّن، والأرضُ اهتزَّت وربَتْ، والأشجار أثمرت.

يقول: وهذا هو حالُنا في رحلتي الشّتاء والصّيف، يضيقُ بنا الحال بعض السّنين لقلّة المطر، فنلجأ -بعد الله- إلى تُهامة وأهلها الكِرام، وقد يُصيبهم بعضُ ما أصابنا فيقصدوننا، وغالبًا ما يكون لكلّ بيتٍ من السَّراة أصدقاء في تُهامة والعكس صحيح، يقصدون بعضهم البعض وقت النَّوائب والحاجات.

فوائدٌ تربويَّة:

١- الخَجَلُ قدْ يحرمك من الضَّرورات، والجُرأة مطلبٌ في بعض المواقف، وحسنُ المنطق مخرجٌ لك.

٢- المُوفَّق من جعله الله قاضيًا لحاجات النَّاس، يُفرّج عنهم، ويُدخلُ السُّرور عليهم.

عيسى وضأنُه ما ضَوَوا

يقول والدي: كنتُ أرغبُ في تكوين نفسي، وكنت أطمحُ في الحصول على المال المُتمثّل في ريال الفضّة، والذي لا أعلم كيف يحصل الناس عليه؟!، اشتغلتُ في التّجارة -كما مرَّ معنا-، فكوّنتُ رأس مالٍ لا بأس به، فأردتُ أنْ أجرّبَ رزقا آخر، فقرّرتُ أن أمتلك الغَنَم؛ فهي أكثرُ بركةٍ ورعَاها الأنبياءُ قبلي، فاشتريتُ عددًا من الضّأن لا يتجاوزُ أصابعَ اليد الواحدة، وقلتُ سأبدأ بها وسيُبارك الله لي فيها، فكنتُ أسرحُ بها في البُكور إلى المرعى، مع بقيّة أفراد القرية من الرّعيان، وأعودُ مع غروب اليوم مُتتبّعًا الكلأَ والعُشبَ لها.

فأصبح لديّ ثمانية رُؤوس من الضّأن، من بينها أربعٌ وُلِدَ لها صغار، فكنتُ أسرحُ بالثّمانية، بينما البَهْمُ تبقى حبيسةَ البيت.

وفي يومٍ من الأيّام -كعادتي- ضممتُ غنمي إلى غنم أرحامي، وكان يرعاها الكبارُ مِنْ الفتيات، بينما نحنُ الصّبية نلعبُ معا، ونبحثُ عن هِراواتٍ نمارسُ بها أنشطتنا المُختلفة.

وبين فترةٍ وأخرى أسالُ إحدى الفتيات عن غنمي، فتقول: إنّها بين الغنم.

وعند الغُروب أردتُ أن أفصل غنمي حتّى أعودَ بها لقريتي، فلي طريقٌ ولأرحامي طريقٌ آخر، إلّا أنّني لم أجدُ إلا أربعًا فقط، والأربع الأُخرى لا أثرَ لها.

فسألتُ تلك الفتاة عنها فقالت: أنا أعرفُ وأميّزُ منها واحدة، وكلّما سَألتَني نظرتُ فإذا هي بين الغنم، فظننتُ أنّها معًا.

فقلتُ: إذًا خذوا هذه الأربع معكم، وأنا سوف أبحثُ عن الأُخرى.

أظلمَ اللّيل عليّ وأنا لمْ أجدْ لها أثرًا، وكانت تلك الأربع الّتي أبحثُ عنها -والّتي لها بَهْمٌ في البيت- قدْ عادت إلى القرية؛ لأجل صغارها،

فعندما شاهدها والدي أرتاب لذلك وخاف عليّ، وخشيَ أن يكونَ قدْ أصابني مَكْرُوه، فما كان منه إلّا أنْ أخذَ الزّير (الطّبل)، وبدأ يقرعهُ قرعًا يعرفُه أهل القريةِ أنّه لطلب النّجدة، وأنّ هناك خطبٌ قدْ حلّ بأحد أفرادها!

اجتمع النّاس منْ خمس قُرى وهو لا يزالُ مُستمرًا في (النّقع) على الزّير، والنّاس تسألهُ ما الخَطب؟! وهو لا يردُّ حتّى يجتمعَ أكبرَ عددٍ مُمكِن، وعندما أجتمع العدد الكافي أجابهم على سُؤالهم شِعرًا يقول فيه:

الشّيمة يا عفص (بن) حارث * عيسى وضَأنه ما ضَوَوا**

فأدركَ الجميع الخطب، وأصبحُوا يُردّدون البيتَ بلا شعور أثناءَ بحثهم عنّي في الجبل، ومع بعضهم شهابٌ من قبسٍ تُضيء لهم عتمة الطّريق، وكانت وسيلتهم الوحيدة.

وعندما أشرفَ الجمعُ على قمّة الجبل، صرخ أحدهم مُنادِيًا بقوله: يآ عيسى -مادًا بها صوته-، وكان جهوريُّ الصّوت، فاستجابت لداعيه الجبالُ مُردّدةً صدى صوتِه، حتّى خُيّل لي أنّ القبيلة كلُّها تُناديني.

فأجبتُ النّداء وقلت: أنا بخير ولكنّي فقدتُ أربعًا من الضّأن، ولا زلتُ أبحثُ عنها.

فجاءني الرّدُ بأنّ الأربع قدْ وصلت الدّار، فقلتُ: إذن ما فقدتُم شيئًا، والأُخرى قدْ عادت مع أرحامي، وأنا سأذهبُ للمبيت عندهم حتّى أسرحَ بها غدًا من بيْتهم؛ وفعلتُ ذلك خشيةً من والدي، وحياءً من لقاء النّاس ومواجهتهم، وكان بيني وبينهم من المسافة مالا يقلُّ عن كيلومترٍ ونصف من الطّريق الجبليّ المُنحدر.

وفي اليوم التّالي أخذتُ غنمي وقرّرتُ أنْ أجمع شملها بالبقيّة، وأسرحُ بها للمرعى كعادتي، لكنّي وجدتُ والدي قدْ ذبحَ الأربع؛ ليُطْعم

بها الجماعة الَّذين هبُّوا لنجدته، فأرادها صدقةً عنِّي، وتعبيرًا عن فرحهِ بسلامتي، فأنا ابنهُ الوحيد.

ولكنَّ ذلك ألمني جدًّا، وبدَّد أحلامي وآمالي، ولك أن تتخيلَ شعوري حينها؛ فقد كنتُ أشقُّ طريق الثَّراء، وأردتُ أنْ يكون لي قطيعٌ من الغنم، وأحلُم أن يتضاعفَ عددهُ بالمئات بل بالأُلوف، فيأتي هذا الموقف الَّذي أفْقدني نصفه في حادثةٍ عابرةٍ كهذه.

[وجدّي -رحمه الله- كان زهدًا في الدُّنيا وفي الكسب، يعيشُ كفافًا بقوت يومه إنْ توفَّر، وإلَّا باتَ طاويًا بطنه، بينما والدي كان يريد أنْ يحيا حياةً كريمةً، يجدُ فيها ما ينفقُ على نفسه، ووالديه، ويتزوَّج به، ويكرمُ ضيفه].

يقول والدي: فكانت الصَّدقة صدمةً لي، حينها قرَّرتُ أن أبيعَ ما تبقَّى منها، وأسافرَ إلى المدينة طلبًا لكسب المال.

وكانت أوَّلُ سَفْرة لي لعلي أنْ أتغرَّبَ شهورًا، وأعودُ بما يكفيني من المال ردْحًا من الزَّمن، وهكذا الحياة!

فوائدٌ تربويَّة:

١- إذا قدَّر الله عليك بمكروهٍ فاعلم أنَّه ما أراد بك إلَّا خيرًا، علمهُ مَنْ عَلِمَه، وجَهِلَه مَنْ جَهِلَه.

٢- غضبُك الآن وحُزنك على ما فقدته يتبدَّل سعادةً وسرورًا، متى ما تيقَّنت أنَّ هذه خيرةُ الله لك.

٣- حدوثُ أمرٍ يزعجُك رُبَّما يكونُ نقطةٌ تحوُّلٍ في حياتك، ومصدرُ سعادتك وأُنْسِك.

هذا عِفْرِيتُك!

يقولُ والدي: عندما ذبح أبي غنمهُ الأربع، حزنتُ لذلك حُزنًا شديدًا، وبفِعْله ذاكَ صرفني عن حُلْمِي، بأنْ أكونَ راعيًا للقطيع من الغنم.

فقرَّرتُ أن أبيعَ ما تبقَّى منها وأرحلَ إلى الطَّائف طلبًا للرزق، فعرضتُ الفكرة على صديقي (عالي)، وهو بدورهِ عرضها على ابن عمٍّ له، يُقال له (سعيد)، فاتَّفقنا على الرَّحيل، وسمعنا أنَّ النَّاس يذهبون إلى المُدن لكسب المال، وكانت أقربُ مدينةٍ لنا (الطَّائف).

استأذنتُ والدي، وأخبرتهُ بغايتي، فقبِل على مَضَض لأنِّي وحيدُه، وكانَ زاهدًا في الحياة، يعيشُ على ما تيسَّر في بيتنا، يُشبعُ بطوننا أنا وأخواتي بينما هوَ يبيتُ جائعًا، لا يشكو لأحدٍ، ولا يطلبُ المُساعدة من أحدٍ.

[وأنا أذكرُ جدّي -رحمه الله-، وكنتُ طالبًا في الصَّف الخامس أو السَّادس الابتدائي، وذهبتُ معه إلى مسجد عبد الله بن عبَّاس - رضي الله عنهما- لصلاة الجُمعة، وكان يبعدُ ما يقارب الكيلومتر من منزلنا.

دخلنا المسجد ننتظرُ الخُطبة، وكنتُ كثير الأسئلة لجدّي إلَّا أنَّه أسكتني قائلًا: لا يصلحُ الكلام في المسجد يوم الجمعة.

أدّينا الصَّلاة، وخرجنا عائدين إلى البيت، وأنا مَنْ يُرشده الطَّريق لأنِّي أعرفها أكثرَ منهُ، فوجدنا عند باب الجامع رجلًا يُوزِع صدقةً لمن يرى أنَّهم بحاجتها، وهي عبارة عن رغيفٍ من البُرّ ومُدٍّ من التَّمر، ففرحتُ بذلك فرحًا شديدًا؛ لأنِّي خرجتُ من البيت بدون إفطار، ولكن صدمني جدّي بأنْ أُعطى الرَّغيف والتَّمر لشخصٍ آخر، فقلت:

يا جدي لماذا تُعطيه وأنا أُريده؟! قال: هو محتاجٌ وليس عنده شيء، ونحنُ عندنا في البيت ما يكفينا].

قال والدي: فتوجَّهنا نحن الثَّلاثة -عالي وسعيد وأنا- للسَّفر إلى الطَّائف، ومكثنا فيها أيامًا فقط، وكانت السَّفرَة الأُولى لنا، ولم نحتملُ الغُربة، ولم نتقبَّل الشُّغل، وكُنَّا نأنفُ أن نكونَ خدمًا للغير، ونسمعُ الإهانة والكلمات الجارحة، هذا الحال كان في المدينة وليس في القرية مثله؛ فقد اعتدنا في ديارنا أن يخدمَ بعضنا بعضًا، بمقابلٍ أو بدونه مع كامل الحُبّ والاحترام.

فهزَّنا الشَّوق والحنين للعودة إلى ديارنا، والزُّهد في العمل، وفي الرّيال الذي لا يأتي إلا بإهانة، فقرَّرنا العودة حتَّى إنَّه بقي معنا مُدٌّ من الدَّقيق البُرّ لم نأكله.

وكانَ هذا المُدُّ لسعيد، ولكن شاركناه فيه مقابل ريالٍ عن كل قسم.

فلما قرَّرنا العودة اشتريتُ ثلاث عمائم: لي واحدة، ولوالدي واحدة، ولعمّي واحدة.

وركبنا سيارةً تُوصلنا إلى منطقة (بِيْدَه)، تبعدُ عن الطَّائف ١٨٠ كم تقريبًا، حيثُ هي آخرُ نقطةٌ تصلُ إليها السَّيارات، عبر أوديةٍ وصحارٍ وجبال، فلم يكن هناك إسفلت إلَّا داخلَ المدن، وفي بعض شوارعها الرئيسة، وغالبًا يكون شارعًا أو اثنين.

وعلينا أن نكمل باقي المسافة سيرًا على الأقدام، وكانت المسافة التي نسيُرها على أقدامنا لا تقلُّ عن ١٥ كم.

وعند وصولنا إلى (بِيْدَه)، أمطرتُ السَّماء فحالت دون إكمال المسير، واضْطررنا للمبيت، فليس أمامُنا الآن إلَّا البحث عن بيتٍ يُؤينا، ولا نعرف أحداً هناك ألبتة.

فلبستُ عِمامتي الجديدة، وأعطيتُ لكلّ واحدٍ من رفاقي عِمامة؛ حتَّى يستقبلَنا مَنْ نطرقُ بابه!

فقصدنا أوَّل بيتٍ والمطر يُبلّل ملابسنا، فوجدنا في ساحة البيت امرأةً تُنظّفها، وترفع الأدوات تحسُّبًا للمطر، وكُنّا الثلاثةُ في أعمارٍ مُتقاربة، لا نزيدُ عنْ خمسةَ عشرَ عامًا.

توجَّهنا داخلَ البيت، وبدأتُ في إلقاء التَّحية والسَّلام بحرارةٍ وشوق، وكأنّي أعرفُ زوجها وأعرفُ أهلَ بيتها، وهي تردُّ عليَّ التَّحية كما تردُّ الأمُّ على ابنها، ومن حرصي على المبيت بالغتُ في التَّحايا.

ولكنَّ رفيقنا (سعيد) لم يحتمل المشهد، فعادَ أدراجه وهو يضْحكُ ضحكًا شديدًا فرابَها فِعْله، وأدْركتْ حينَها أنَّنا لا نعرفُ أحدًا، وإنَّما تلكَ حيلةٌ منَّا، فما كانَ منها إلَّا أن طَردتْنَا.

عاتبتُ (سعيدًا) على ضَحِكِه، وفواتِ الفُرصة علينَا، فردَّ قائلًا: كيف أحتملُ وأنت تُبادلها التَّحايا وكأنَّها أُمُّك؟! فقلتُ له: ولكنْ ليسَ لنا حيلةٌ غيرَ ذلك.

فقلتُ: إيَّاك أن تعودَ لذلك مرةً أُخرى.

وشاهدْنَا رجلًا أمامَ دارِهِ فاتَّجهنا نحوهُ إلَّا أنَّه دخلَ البيتَ مُسرعًا فاختفى عنَّا، وخرجتْ امرأته في استقبالنا قائلةً: ماذا تُريدون؟! قلنا: مأوىً عن المطر.

قالت: لا يُوجد في البيت رجال.

قلتُ: نحن رأينا الرَّجلَ داخلًا، فإن كانَ هو صاحُب الدَّار فلا يهرُب عن ضُيوفه، وإنْ كانَ ضيفٌ مثلَنا فلا يشقَّ عليكم دُخولنا معه.

فوقفتْ على الباب باسطةً كلتا يديها لتمنعنا من الدُّخول، فزادَ المطر انهمارًا، فما كان من (سعيد) إلَّا أنْ دخلَ من تحت ذراعيها، فطفقت تطردُ خلفَهُ، فدخلنا نحن وجلسنا عندهم.

حينها خرجَ الرَّجُل غاضبًا مُنكرًا دخولنا عليهم دوْن استئذان، وبدون مُوافقة صاحب الدَّار.

كنتُ أكبر القوم فقلتُ: ولكن ليس أمامنا خيارٌ سوى الدُّخول، نحتمي بداركم من السَّيْل الهادر، ولو جلسنا بالخارج لجرَفنا، ولا نملك لِباسًا غيرَ ما تراهُ علينا! فسكتَ ولمْ يردّ.

تشجَّعتُ وقلتُ سأعطيه علوم الدّيرة والسّيرة كما اعتدتُ مع والدي وأصحابه.

فقلتُ له: ما عندنا من العُلوم إلّا سلامتكم، ولمْ يردّ عليّ! وكان من المُفترض أنْ يقول: حيّاك الله، وحيّا الله علومك.

استمريتُ ولم أدقّق، وبدأت أخبرهُ عن سفْرتنا وما لاقيناه، وأنَّ أهلنا قدْ ألحُّوا علينا بالعودة، وكثرتْ منهم الرّسائل، ووصلنا لديرتكم فباغتنا المطر، فقلنا: نقضي هاته اللّيلة عندكم، وختمت بقولي: هذه عُلومنا، وما نتقفّى به علومكم وسلامتكم.

وكان من المُفترض أنْ يردَّ قائلًا: سالم وغانم، وحيّاكم الله، وحيّا الله علومكم، ثُمَّ يواصلُ في سرد الأخبار والتّرحيب بنا، ولكنَّهُ لم ينبسْ ببنت شِفة.

لم يحتمل رفيقنا (سعيد) وكانَ أصغرنا، فضحك ضحكًا شديدًا، وخرجَ من البيت -كعادته-.

فقال صاحُب الدَّار: أمّا هذا فخرجَ ولنْ يعود، وأمّا أنتم فباتُوا معنا.

ثمَّ أعطيناهم دقيقًا ليصنعوا لنا ولهم منه عشاءً، فكان ذلك، فقد صنعت المرأة من نصفه أربعةُ دغابيس[٣]، كان اثنين منها أكبر حجمًا.

قدّمت الطّعام، وجعلت الدّغابيس الكِبار في جهتها هيَ وزوجها، والصّغار في جهتي أنا وصديقي عالي.

---

٣ جمع دغبوس وهي أكلة مشهورة في منطقتنا، عبارة عن عجين، يوضع في ماءٍ مغليّ لطبخه، أو يُطبخ في مرقٍ ليصبحَ جاهزًا للأكل.

فأمسكتُ بدُغبوسي حتَّى آخذ منه لقمةً لأغمسها في المَرق، إلَّا أنَّه فلتَ منِّي، وأصبحَ خلفَ دُغبوسها، فخطفتُ دغبُوسها الكبير وتركتُ لها دُغبوسي.

فقالت وهي غاضبة: هذا هو عِفْرِيْتُك، فقلت لها مازحًا: كُلُّها عفريتٌ واحد -يعني لا فرق-، فكانت تلك الحادثة هي التي أطلقتْ أساريرَ صاحبَ الدَّار، وأصبحنا نتسامرُ ونضحك، ونشربُ القهوة والشَّاي وكأنَّنا أصدقاءٌ منذُ زمنٍ طويْل.

فقلتُ في نفسي: لو أنَّه لقيَنا بوجهٍ طَلْقٍ بشُوش، وعشَّانا من دقيقنا لكانَ أجدى وأحسن، ولكنْ لا نلومُ أهلَ هذه المنطقة فلا يكادُ أنْ يخلوَ يومٌ مِنَ العابرين، وبمَنْ انقطعت بهم السَّبيل، وحالُ النَّاس لا يحتملُ ضيافةَ كُلّ طارق!

وبتنا في ذلك المنزل، وفي صبيحة اليوم التَّالي صنعت المرأة من الدَّقيق ثلاثة قرصان، أكلنا نحن وهم اثنان، واحتفظنا بالثَّالث لرفيقنا (سعيد).

وعندما التقينا به وإذا بعمامتي الَّتي لبسها قدْ تغيَّر حالها، وتلوَّثت بالطِّين، فقلت: ماذا صنعت بهذه العمامة، وقد كانت جديدة؟

قال: أتظنُّ أنِّي مثلك قدْ نمتُ على زوليَّة (سُجادة)؟!، للأسف أنا لم أنم إلَّا تحتَ الرَّعش عند قِرْبَة الماء.

قلتُ: وما الذي أضحكك وأخرجك؟!

قال: تُعلّم الرَّجل بعلومك، ولم يردَّ عليك العلم، وأنا لم أحتملْ ذلك، فجلستُ أضحك حتَّى بعد خروجي من عندكم إلى أنْ غلبني النَّوم.

ثمَّ سألنا عن الدَّقيق فأخبرناهُ بما حصل، وأنَّ نصيبَهُ منه هذا القُرْص، فقال: لنْ تخطوَا خطوةً واحدةً حتَّى تُعيدَا ليَ الدَّقيق!

فقلتُ له: الدَّقيق لنا الثَّلاثة، وقد أعطيناكَ ثمن حصَّتنا فيه، فأصرَّ وألحَّ ووضع خطًا في الطريق يمنعُنا به من المسير، حتَّى نُعيدَ له دقيقُه، ويُعيدُ لنا الثَّمن.

فقلتُ لصديقي عالي: إمَّا أن تكفينا شرَّه، وإلَّا تأذن لي أبعدهُ عنَّا.

فقال عالي: افعل ما بدا لك.

فشرعتُ أُصارعُه وأصْرعُه -وكان أصغرَ منِّي- حتَّى اجتمع أهلُ القرية على صُراخه.

فنهرونا وقالوا: كيف تضربون هذا الصَّغير بينكم؟

فقلتُ: لا خير في ولدنا، ولا خير في ولدكم، وهدفي أنْ أُثيرهم بقولتي تلك.

فقالوا: وما دخلُ ولدنا بكم، ومن هو ولدنا؟!

فأخبرناهم بما حصل، وأنَّ ولدَهم لم يُضيّفنا إلَّا مِنْ دقيقنا، وولدنا يقول: علينا أن نأتيَ بالدَّقيق من العَدَم.

فاعتذروا عن ولدهم، وعرضو علينا الضِّيافة فشكرناهم، وغادرنا المكان عائدين إلى الدِّيار.

وعندما اقتربنا من القرية قبيل المغرب، قرَّرنا أن نختبئَ في غارٍ قريبٍ من القرية، حتَّى إذا أظلمَ اللَّيل دخلنا سِرًّا؛ حياءً من النَّاس، وعودتنا بخُفَّيْ حُنين!

ولكنَّ رفيقنا (سعيد) رفض البقاءَ قائلًا: أنا لا يَهُمُّني أحد، وليس عندي إلَّا أمِّي، وهي في شوقٍ إليَّ.

ترجَّيناه بالبقاء فرفض، وكنَّا نعلمُ أنَّه سيلفتُ الانتباه لنا فقلنا: لا تخبرُ أحدًا بأنَّنا عُدنا معك.

ولكنه تعمَّد ذلك، فلمَّا أنْ وصلَ إلى القرية استقبلهُ أهلُها، وسألوهُ عمَّن قدم معه؟ وأين هم رفاقُك؟

فقال: مُختبئونَ في الغار.

وكان النَّاس بُسطاء يشتاقون للعائد من السَّفر، فقدم أهل القرية حتَّى وقفوا على رُؤوسنا، مُرحّبين ومتهكّمين بقولهم: أين البضائع؟ وأين الأحمال؟!

قلنا: ننتظرها قادمةً على الجِمَال، فلم يكن لنا بُدُّ إلَّا أن نُصرّف تهكّمهم بتهكُّمٍ مِثْله!

وهم يعلمون حقيقة عودتنا صفرًا من كُلّ شيء، فقالوا ساخرين: هيًّا بكم نُعشّيكم ونضيّفكم، حتَّى تصل رواحلكم بحُمولاتها!

فرضخنا لهم على مضض، وقد أثَّر الموقف في نفسي كثيرًا، فقرَّرتُ أنا وعالي السَّفر مرةً أخرى، وألَّا نعودَ دون أن نُحقّق ما يرفعُ رؤوسَنا أمامهم، فكانت الرّحلة الثَّانية.

فوائدٌ تربويَّة:

١- السَّفر بدون تخطيط، وتحديدٍ للأهداف، وجمعٍ للمعلومات الكافية، مثلُه كمثل أيّ عملٍ ناقصٍ مصيرهُ الفشلَ الذَّريع.

٢- الفشلُ عند صاحب الهمَّة خطوةٌ من خطوات النَّجاح؛ فيدعوهُ للعودة بخطوةٍ واحدةٍ للخلف للانطلاقة الصَّحيحة القويَّة.

٣- لا تيأس عند الفشل مِنْ أوَّل مُحاولة، وكرّر العمل بصورٍ مُختلفة.

٤- المقام يقتضي أن يكونَ حالُك مقبولًا في مقامك، وأن يكونَ مقالُك مُتناسبًا مع مقامك!

٥- الرَّفيق الذي لا يليق بك قد يتسبَّبُ في إحراجك، أو إخفاقك، أو فشلِك.

عالي وَكُرَةُ الأطفال

يقول الوالد -رحمه الله-: كُنَّا أنا وعالي نمشي في أحد الأحياء المُؤدّية إلى السُّوق من أجل العمل، وكان في طريقنا مجموعة من الصّبية يلعبون بالكُرة، تدحرجت الكُرة حتَّى وصلت أمام صديقي عالي -الّذي لم يلمس كُرةً في حياته-، بل لم يسبق له أن رأى كُرة.

استغلّ فرصة وصول الكرة عند قدمه فركلها كما يصنعُ الأولاد، ولكن بطاقةٍ مُختلفة، فشتَّان ما بين شابّ مُتنعّم في حضن والديه، وشابّ مثلي ومثل عالي يعمل ويشقى وينخرطُ في أعمال الكِبار؛ يحمل الأثقال، ويعمل في الحَجِر والطّين، ويقضي أكثرَ من نصف يومه في العمل، فلا شكَّ أنَّ الرّكلة ستكونُ مختلفةً تمامًا، وكأنَّها قذيفةٌ خرجت من فوهة مِدْفَع.

هذا الفعل التّلقائي البسيط كان بحُسن نيّة، لكنَّه أثارَ غضب الصّبية الّذين يلعبون بالكُرة، فهاجموهُ بالضّرب والشّتم والصّياح، معَ أنَّ فارقُ العُمُر بينهم لا يكادُ يُذْكر، -الجميعُ أبناء خمسة عشر عامًا-.

وكانت ردّة فعل صديقي عالي الدّفاع عن نفسه، ولكنْ لفارق القُوّة البدنيّة كان يدفعُ هذا، ويمسك بذراع ذاكَ، ويُسقِط الثّالث صريعًا على ظهره، وكأنَّه يُمازِحُهم.

بينما أصحاب الفريق كانوا يبذلون كثيرًا من الجُهد والصّراع وكأنَّهم في معركةٍ حامية الوطيس!

كنتُ أرقبُ الموقف وأخشى من سوء العاقبة، فأردتُ أنْ أنهي النّزاع الّذي رُبّما قد يتطوّر لمرحلةٍ لا تُحمدُ عُقباها.

ولكن الصّبية كانوا يُصرّون بشراسةٍ على ردّ الاعتبار، والانتقام مِنْ عالي الّذي عكّر مِزاجهم، وأفسدَ بصلافته أجواءَ اللّعب عليهم.

فكنتُ أبْعِدُ هذا، وأمْسِكُ بيدِ ذاكَ، وأدفعُ الثَّالثَ منهم دونَما ضرر، وأنا في كلّ هذا أحاول الإصلاحَ ما استطعتُ، وما توفيقي إلّا بالله وحده.

وبينما أنا مُنهمكٌ في التَّهدئة وإصلاح ذاتِ البين، وإذْ بصفعةٍ مُفاجئةٍ على قفايَ من رجلٍ كان يقفُ خلفي!

فما كانَ منّي إلّا أنِ التفتُّ عليه، وردَّيتُ الصَّفعة بأضعافها، معَ أنَّ الرَّجلَ كانَ راشدًا، وعُمُرهُ -تقريبًا- لا يقلُّ عن ضِعْف عُمُري.

والعجيبُ أنَّه لم يُعقّب على فعلي، بل غادر المكان مُنصرفًا، وما هي إلّا بضع دقائق وإذا بفريقٍ مِنَ الشُّرطة جاء ليُلقي القبضَ عليَّ، ويقودني إلى مركز شُرطة السُّوق، وأنا لا أعلمُ ما الّذي جنيتُهُ!

وعندما دخلتُ على المسؤُول وإذا به ضابطٌ برتبةٍ عالية، وإذا به صاحبنا الّذي صفعتهُ وصفَعني!

فنظرَ إليَّ قائلًا: هل أبوك شيخ؟ أو هل أمُّك شيخة حتَّى تمدَّ يدكَ وتضربني؟!

عندها أدركتُ أنّي في موقفٍ ضعيف، وأنَّ خصمي في موقفٍ قويّ، ورُبَّما قدْ يستغلُّ سُلطتهُ عليَّ، ويفتكُ بي!

وكعادتي في مثلِ هاته المواقف أتقمَّصُ دور أبي -جدّي أحمد- في حكمته، ورزانته، وحُسن سياسته.

فقلتُ له: خُذني بِحِلْمِكَ، ولا تمُدَّنَّ يدك حتَّى أنهي حديثي، فكلانا له مسؤُولٌ يقفُ بين يديه، أنت الآن -يا سيّدي- خصمٌ ولستَ بالحَكَم!

وكانَ أحدُ جنوده واقفًا معنا فأُعجب بكلامي، وبدا لي من لهجتِه أنَّه من قبيلتي، بينما أنا لا أعرفُه.

فقال الجُنديّ: صَدَقَ -طالَ عُمُرك- استمعْ لقوله؛ وكأنَّ مقالتهُ تلك امتصَّت غضب الضَّابط، وخفَّفت من حِدَّة توتُّره!

فقال: أسْمَعُك، فتكلّم.

فرويتُ له الموقف كما حصل، وبيّنتُ له أنَّ حُجَّة دُخولي في العِراك كان لدواعٍ أمنيَّة من فكّ النّزاع وما شابه، لكنَّك لم تتحقَّق، بل أقحمتَ نفسك في الأمر، وانهلتَ عليَّ ضربًا دونَ أنْ تسْمعَ مِنّي، وكان زيُّك مدنيًّا، فظننتُك شريكًا لخصمي!

فما كان منهُ إلّا أنْ قَبِل عُذري، وكانَ مُبتسمًا مُعجبًا بردّي وهُدوئي، فعذرني قائلًا: إيّاك أن تعودَ لمثلها، وغادرتُ فَرِحًا بسلامتي.

فوائدٌ تربويَّة:

١- اختلاف الثَّقافات والعادات قدْ يُوقِعُ الشَّخصَ في حرجٍ أحيانًا.

٢- ضرورةُ معرفة عادات وتقاليد وثقافات البلد الّذي تنتقلُ إليه.

٣- الحِلْمُ، والأناةُ، وحُسنُ التَّصرُّف، وسلامةُ المَنْطِق تُنْجِي الإنسان من الوقوع في المآزق بإذن الله.

عالي وكيسُ البَدوّي

مواقفُ صديقي عالي هذه لا تنتهي، فقد تفاجأتُ يومًا وأنا أبحثُ في السُّوق عن عمل، وإذا بشخصٍ يناديني وهو يلهثُ من التَّعب، فسألتهُ ما الخبر؟!

فقال: صديقُك عالي حصلتْ مُشاكسةٌ بينه وبين شخصٍ آخر، وهو الآن بين يدي الأمير -مُحافِظ الطَّائف- ليحتكما إليه.

فذهبتُ إليه مُسرعًا، فوجدتهُ مع أحد القادمين من البادية، وعالي مُمسكٌ بكيس النُّقود من الأسفل، وخصمُه من أعْلاه!

فسألتُ عالي ما الخَطْبُ؟

فقال: كنتُ أسير في الطَّريق فوجدتُ هذا الكيس فالتقطتُه، وهجم عليّ هذا الرَّجل مُدَّعيًا أنَّه له، فقلتُ: حسنًا، أخبرني ما بداخله وأُعطيك إيَّاهُ إنْ كنتَ صادقًا، لكنَّه رفضَ وقادني إلى الأمير، وأنا مُصرٌّ على عدم إعطائه الكيس، وهو مُصرٌّ على ألَّا يُعلمني ما بداخله!

فقلتُ للرَّجل: الكيسُ في عُهدتي، وأنا سأُصلحُ بينكما ولكنْ أخبرني ما ذا يوجدُ بداخله؟ فرفضَ إلَّا بحضرة الأمير!

فأدركتُ أنَّ وراءَ الأمر ما وراءهُ من المكيدة؛ لعلمي بحال الأمير وما يُعانيه مِنْ ضعفٍ في سمْعه، ومُغْطيات المشهد قدْ تُدينُ عالي بالسَّرقة، فعلمتُ أنَّ الرَّجلَ سيربحُ القضيَّة بمكره ودهائه، ولعلمي بحال عالي وما ينطوي عليه مِنْ براءةٍ وحسنُ نيَّة!

فذهبتُ إلى كاتبٍ ليكتب لعالي معروضًا يُقدّمه بين يديّ الأمير، مُطالبًا بإحالته على الشَّرع حتَّى يُسمعَ منه، ويُتحقَّق من صحَّة الدَّعوى.

فأرسلتُ بالخطاب معَ أحد الأقارب -ابن عثمان- إلى عالي؛ حتَّى لا أكونَ في الصُّورة.

فأتى الخطابُ أكلَه، وأحالَ الأميرُ المُتخاصمين إلى الشُّرطة، فأخذَ الضَّابط الكيس وسألهم عن موْطن الخلاف بينهما، فبدأ بسُؤال المُدّعي قائلًا له: ما دليلكُ على أنَّ الكيس كيسُك؟

فردَّ عليه قائلًا: فيه خَاتمِي، وعليه اسمي، وفيه جذمور[٤] زنجبيل، ومبلغ قدْرهُ كذا وكذا.

فتح الضَّابط الكيس، فوجد الخاتم، ووجد الزَّنجبيل، ولكنَّه لم يجد المبلغ.

فقال عالي: لقد انقضَّ عليَّ كانقضاض الأسد على فريسته، وأنا لم أفتح الكيس بعد، وكلانا قدْ أمسك به.

فقال المُدّعي: إنَّ له شريكًا سرقَ المال، وهو مَنْ كتبَ له خطابًا.

وإذ بعالي ورجل الشُّرطة يبحثان عن ابن عُثمان الَّذي أوصلَ الخِطَاب، فقلتُ لعالي: ولماذا تُخبرهم عنه؟ ارجع إليهم وقل: لم أجدهُ، بل أنا لا أعرفُه أصلًا، فرُبَّما يكونُ شاهدَ عيانٍ لما حصلَ بيننا، فأراد الإصلاحُ ليسَ إلَّا، وحينما رفض خصمي الصَّلح، انبرى بكتابة ما رأته عيناهُ فكان ذلكَ الخطاب!

وكان الشُّرطيُّ رجلًا عاقلًا ذو خبرة، فقال: صدقَ صاحبُك هيَّا بنا نعُد.

فبينما عالي وخصمه بحضْرة الضَّابط، الَّذي كان يستمعُ لدعوى الخصم مرَّة، ولردّ عالي عليه مرَّة ثانية، لكنَّه معَ هذا لم يصلُ إلى نتيجةٍ يتبيَّن له فيها الصادقَ مِنَ الكاذب.

فأتى الفرجُ من الله لصديقي عالي، بعد أنْ جاءَ مجموعةٌ من أصْحاب المُدّعِي -ممَّن يعرفون سيرته- فأدانوهُ من قبل أن يُطلب منهم، وشهدوا عليه بسرقاتٍ عديدة، فهو لم يدع أحدًا من أهل

---

٤ الجذمور: ساقٌ تنمو أفقيًا تحت الأرض، يستعملها النبات للانتشار، وتكوين نباتات جديدة تطلق جذورًا وسيقانًا عند العُقد السَّاقيَّة.

المنطقة إلّا وسرق منه كبشًا، أو دجاجةً، أو حتَّى مُجرَّد بيضة، وقدْ عُرف بهذا، بينما الآن يتَّهمُ هذا الصَّبيّ بما كادَ له!

حينها تبيَّنت الصُّورة للضَّابط، فاعترف الرَّجلُ بما افتراهُ، ونجَا عالي من تلكَ المَكيْدة والحمدُ لله.

فوائدٌ تربويَّة:

١- يتعلَّمُ الانسان من المواقف، والأحداث، والأخطاء، أكثرَ مما يتعلَّمهُ من النُّصح، والإرشاد، والتَّعليم المُوجَّه.

٢- عندما تساعدُ شخصًا وقع في مشكلةٍ بسبب جهله، فلا تكن مساعدتك وبالًا عليك، بل تصرَّف بحِكْمَة.

٣- الشَّخص الَّذي يُضمرُ المكرَ والخديعةَ لا يقبلُ بالنُّصح ولا المُصَارحة.

ريالٌ جلب خمسين

يقول الوالد: كنتُ أعمل حمَّالا في مدينة الطَّائف، فأحصلُ على بضع ريالات في اليوم، تزيدُ وتنقص بقدر الله، وكانتْ مصدر رزقي ليومٍ واحد.

وذاتَ يومٍ عملتُ منذُ ساعات الصَّباح الباكر حتَّى قبيل المغيب، ولم يدخل جيبي سوى ريالٍ واحد.

غادرتُ السُّوق مُقتنعًا وراضيًا بقسمة الله لي، وبينما أنا أسير وإذْ برجلٍ قادمٍ من القرية -مسقط رأسي- فرحَّبت به، وفرحتُ بمقْدمه - على عادتنا بكلّ قادم-؛ نسمعُ منه الأخبار، ونشُمُّ عبق القرية في أحاديثه وسمَرِه، فقلتُ له: حيَّاك الله على برَّاد الشَّاي، وبعدها تُعطينا عُلومك، فقال: بُرَّاد الشَّاي يحتاجُ إلى قُرْص، فعرفتُ أنَّه جائعٌ ولم يتناول وجبة غدائه بعد، فقلتُ: أبْشِر بالشَّاي وبالقُرْص.

فمررنا على بائعٍ للخُبز البُرّ، فأخذتُ منه خبزةً واحدةً لضيفي، وأخذتُ منه حزمةً كُرَّاث، وكانت هذه الوجبة المُفضَّلة للبُؤساء أمثالنا!

وتوجَّهنا للمقهى فطلبتُ بُراد الشَّاي، وبهذا صرفتُ حصَّتي من ذلك اليوم -ريالًا كاملًا-.

قضينا ساعةً في حديثٍ شيّق عن أخبار الدّيرة؛ أمطارها، وزرْعِها، ورعْيِها، وأسعارَ السّلع فيها، وأحوالَ أهلها، وما استجدّ مِنْ أحداثٍ وأخبار.

بعدها عزمتُ ضيفي لتناول وجبة العَشاء قائلًا له: بُرَّاد الشَّاي عِقالُ عشاك، - أيْ تكْرَمة بين يدي العَشاء الرَّسميّ-.

فكبَّر الضيفُ بالخير، ودعا للوالد بالبركة والرّزق الوفير، وأسمعهُ من الثَّناء ما أثلجَ به صدْرُه.

لكنَّ الضَّيف أعتذر عن العَشاء بكلّ لباقةٍ، وأبدى رغبتهُ بالرَّحيل لابنه عاجلًا.

وكان النَّاسُ يُكرمون ضيوفهم بطلاقة الوجه أولًا قبل تناول الطَّعام، ثُمَّ يُقدّمون بعد ذلكَ ما تيسَّر مصحُوبًا بالحفاوة والتَّكريم والودّ، وكانوا يستأنسونَ بضيفهم قائلين: الضَّيفُ مخلوفٌ بخير.

فسألتُ والدي: وكيف تعزِمُه على العَشاء، وقدْ صرفتَ كلَّ ما لديك؟!

فقال لي: عندي مالٌ محفوظ، فقلتُ له مُمازحًا: في البنك؟ فأجاب: بنعم.

واعتادَ أهل القرية أن يحفظوا أموالهم في كيسٍ يضعون فيه حصيلةَ ما يمْلِكون، ثمَّ يعقدُونه ويُودِعونه عند أحد التُّجار، فيستأذنوهُ بالدُّخول أولًا، ثُمَّ يُخفونَ كيس النُّقود في دُكَّانه فيأذنَ لهم.

وهو في كُلّ هذا لا يعلمُ مكان الكيس، وكم فيه؟ بل ولِمَن؟

وكانَ لكلّ شخصٍ منَّا كيسُ نقودٍ، ومكانٍ آمنٍ نختارُه بعنايةٍ؛ لنُخَبّئ فيه مُدَّخراتنا، وكأنَّه بنكٌ مركزيّ.

فهذا هو المكان الآمن لحفظ أموالنا، وعلى كُلّ حالٍ لا يدخلُ الدُّكان إلَّا صاحبَه، ومَنْ كان له وديعةٌ فيه.

ولو أنَّ ضيفي وافق على العَشاء، أخذتُ من كيسي ما يكفيه من المَال.

قلتُ: وماذا لو أنَّ التَّاجر أغلقَ دُكَّانه؟!

قال: أستضيفُه عند أيّ مطعم، وكُلُّهم يعرفني، ثُمَّ أُسدّ المبلغ في يومي التَّالي.

ثمَّ أكْمل قائلًا: ودَّعتُ ضيفي، ثُمَّ غادرتُ السُّوقَ مُتّجهًا إلى المكان الَّذي أبيتُ فيه أنا ورفاقي، وكانوا قدْ سبقوني إليه.

وبينما أنا خارجٌ من السُّوق مُتّجهًا إلى جامع عبد الله بن العبّاس وإذا برجلٍ ذو هيئة يسألني قائلًا: هل تُنزِل هذه الحَمْلة؟!

وكانت السَّيارةُ واقفةً عند مبنى الماليّة، ومُحمّلةٌ بأكياسٍ من النُّقود والأرزاق الّتي يرغبُ في إدخالها داخلَ المبنى.

فقلتُ: نعم، ولكن مقابلَ خمسين ريالًا، شريطةَ ألّا يُشاركني فيها أحد!

فقَبِلَ شَرْطِي ووافقَ على المبلغ، فعوّضني ربّي بخمسين ريالًا مقابلَ ريالٍ أنفقتهُ على ضيف الرَّحمن -كما نُسمّيه- وكانَ بالفعْل الضيفُ مخلوفٌ بخير.

ذكّرني ذلك الرّيال الّذي جلبَ لي خمسون ريالًا، بالرّيال الّذي أخذتهُ حرامًا فأفْقدني خمسين ريالًا، فمَا أكرمَ الله، وما أعجلَ فرجَهُ وعِوَضه!

وبالفعل أفرغتُ الحُمولة وحصلت على خمسين ريالًا، ثمَّ توجّهتُ إلى مخْدعي بصُحْبة رفاقي -في تقاطع وادي وِجّ مع شارع حسّان بن ثابت الآن-، وكان هناك بئرٌ (خرزة) تصلُ إلى مجرى العين، وهي في مكانها حتّى الآن.

وكانَ الواحدُ منّا يحفرُ حفرةً في الوادي بالكاد تكفي جسده، ثم ندفنُ أنفسنا فيها ونحن مُلتحفين بأغطية النَّوم؛ لنحميها من الهوامّ والدَّواب والرّياح.

غادرتُ السُّوق مُتّجهًا لرفاقي وقد تأخّر بي الوقت، فمررتُ ببيت (السّبيعي)، وكان يتألّفُ من دورٍ واحدٍ مُجاورٍ لمشفى الملك فيصل، بينهما شارع حسّان بن ثابت ﷺ، شرق مسجد العبّاس ببضعة أمتار، وقد أُزيلا المشفى وعمارة السّبيعي الآن.

وعندما حاذيتُ بيت السّبيعي خرج منه رجلٌ وعلى رأسه صحنٌ فيه ذبيحة، لم يُؤكل منها إلّا القليل.

فقال لي: هل تريدُ العَشاء؟

فقلت: نعم.

اتّجهتُ صوبه، وأنزلتُ الصّحن عن رأسه -صينيّة الطّعام- فرأيتُ أنّه يكفي لعددٍ من الجوعى، ورفاقي في أشدّ الحاجة له.

فقلت: مِنْ فضْلك، لديَّ رفقةٌ جوعى، وأنا في طريقي إليهم، فهل تسمحُ لي بهذه الصّينيّة على أنْ آتيك بها في الصّباح الباكر؟

فرفضَ مُحتجًّا بأنّها عهدةٌ لديه، وهي من أملاك الدّولة، فعمارة السّبيعي كان يسكُنها بعضُ رجالات الدّولة ممّن يقضون إجازة صيفهم في الطّائف برفقة الوزارات الحُكومية، فالطّائف كانت ولا تزال عروسُ المصائف.

فقلتُ له: إذنْ أُعطيك خمسين ريالًا رهينةً حتّى الصّباح، وهذا المبلغ كما تعلمْ يزيدُ أضْعاف أضْعاف قيمتها وما تحويه منْ عَشاء.

لكنّه أصرّ على موقفه قائلًا: كُلْ من الطّعام حتّى تشْبع، واترك الباقي.

فحزَّ في نفسي أن أشبعَ ورفاقي جوْعى، فقلتُ له: حسنًا ساعدني وأفرغ الطّعام في غطاء نومي هذا، وحصلَ لي بحمد الله ما أردتْ، فحملتُ الصّينيّة على رأسي، واتّقيتُ حرارتها بلوحٍ خشبيّ، وتوجّهتُ إلى رفاقي مُناديًا بأسمائهم، فُلان، وفُلان، وفُلان، ولكن لمْ يُجبني منهم أحد.

ولكنْ عندما قلتُ لهم: قُوموا إلى العَشاء خرجوا جميعا وكأنّهم بُعثُوا من قبورهم!

فأخذوا يتساءلون، أينَ العَشاء، أينَ العَشاء؟

وفي قرارة أنفسهم يعلمون أنَّ هذا الخبرَ مظنَّةُ صدقٍ مِنْ والدي، فقد عهدوا عنه الكَرم والإيثار، فاستكثر على نفسه الشَّبع وهُم جوعى، فليس بغريبٍ عنه هذا الموقف البُطوليّ.

استيقظ الجميعُ، وتحلَّقوا حوْل غطاء نومي، والتهمُوا ما وُضع عليه من الطَّعام كلَّه؛ رُزَّهُ ولحمه، وما تركوا على العظام أثرًا من لحمٍ وشحمٍ وعَصَب، ولم يتذمَّر أو يتأفَّف منهم أحدٌ بخصوص طريقة التَّقديم؛ فالغطاء للنَّوم تارة، وأحْتزمُ به في بعض شأني تارة أُخرى، وكان لونُه مُتغيّرًا بفعل الدّبس والدَّقيق، ومعَ هذا كُلّه أكلُوا من الطَّعام حتَّى شبعُوا!!

حتَّى إنَّهم كانوا يحُكُّون غطاء النَّوم بأظفارهم، مُستمتعين بنكهة الأرزّ مع الدَّسم والدّبس، وكأنَّها نكهةٌ مُتعمَّدة.

فحمدوا الله على ما رزقهم، وأتمُّوا نومهم إلى الصَّباح، أمَّا أنا فلم أستطع النّوم؛ لأنَّ غطاء نومي غيرُ صالحٍ للنَّوم!

تقلَّبتُ حتَّى الصَّباح، بعدها اتَّجهتُ لمجرى العين لأغسلَ فِراشي ممَّا علق به من رزٍّ ولحمٍ وشحم، وأنَا في حالٍ من السُّرور والغِبطة بكرم الله الَّذي هيَّأ ليَ الأسباب، وجعلني أُطْعِمُ -بفضله- رفاقي.

فوائدٌ تربويَّة:

١- قدْ يتباركُ الحرام في يد بعضهم، بل ويجرُّه إلى غيره، وما هذا إلَّا استدراجٌ من الله ليبتليه، ثمَّ يحاسبُه على صنيعه.

٢- البذلُ، والكرمُ، والضّيافةُ، وحُبُّ الخير للغير، هي رزقٌ يسوقُه الله لعبدٍ من عباده، ويقذفُ حُبَّها في قلبه، وهي محضُ كرمٍ من الله، فاحمد الله عليه.

ركوبُ سيَّارةٍ إلى مكَّةَ بأربعة ريال

يقولُ والدي رحمه الله: عَمِلْنا في الطَّائف ما شاء الله لنا أنْ نعْمل، أنا وابن عمّتي وبعض أبناء جماعتنا، وكنتُ أنا وابن عمتي شُركاء في الدَّخْل؛ لأُلفةٍ بيننا وصلة رحِم، فكنَّا نضعُ مصْروفنا في كيسٍ واحدٍ، ونصْرفُ منه سويًّا.

ولكنَّ ابن عمّتي كان أشدُّ حرصًا على الادّخار، وكان يُقتّر على نفسه وعليَّ؛ لرغبته في العودة لأسرته الكبيرة بأكبر مبلغ من المال، وأمَّا أنَا فلم يكن خلفي إلَّا والدي وزوجته، وكان يُوصيني بألَّا أبخل على نفسي، وهوَ لا ينتظرُ منّي شيئًا.

وعندما اقترب موسم الحجّ، بدأ الكدَّادون في الطَّائف مِنْ أمثالي يتَّجهون للعمل في مكَّة؛ لتوافد الحُجَّاج، وللحاجة للأيْدي العاملة في شتَّى الأعمال والمَهام.

فقرَّرتُ الذَّهاب إلى مكَّة، ورأيتُ ابن عمّتي ومن معه يستعدُّون للرَّحيل، فاحضروا كميَّة من الخبز البُرّ، ووفروا قِرَباً للماء، وكنتُ أتعجَّبُ مِنْ فعلهم هذا، وكأنَّنا راحلون إلى أرض مجَاعة.

فعلمتُ أنَّ خطَّتهم في النُّزول إلى مكَّة ستكونُ عبرَ طريق جبل الهدا -مِنْ سِكَّة الجمَّالة-، مُرورًا بخَبْت نَعْمَان، وقد تستغرقُ الرّحلة ثلاثةَ أيَّامٍ مشيًا على الأقدام، وكُلّ ذلك توفيرًا مِنْ أجل ألَّا نركبَ سيَّارة بمقابلٍ من المال، وكانت السَّيارات تسلكُ طريق السَّيل -قرْن المنازل- ، وهي لشركاتٍ مُتعهّدة بالنَّقل.

وكان من حُسنِ حظّي أنّي أُصبتُ في قدمِي بزجاجةٍ أعاقتني عن المشي، وإلَّا كنتُ مُضطرًا للسَّفر معهم مشيًا على الأقْدام، ومفارقة الجماعة -عندنا- خزيٌ ومنْقصةٌ في الرُّجولة.

فقلتُ لهم: أمَّا أنَا فأعتذرُ عن الذَّهاب معكم؛ لعدم مقدرتي على المشْي كما تعلمون، فقبلوا عُذْري.

لكنَّهم حمَّلوني أمتعتهم ليتخفَّفوا مِنْ حمْلها، فركبتُ في سيَّارة باص فورد، تمتلكها إحدى الشَّركات -مِنْ نوع أبلكاش-، وكان ركوبي على سطحها، وسُمّيت بالأبْلكاش لأنَّ مقصورة الرُّكاب مصنوعة من ألواحٍ تحمل هذا الاسم.

وكانت الأُجْرة أربعُ ريالاتٍ، يتمُّ دفعها مُقدَّما عند الرُّكوب، وهي تُعادل قيمة خروفين تقريبًا.

فاستمتعتُ بالرَّحلة وأنا على ظهر السَّيارة، أمَّا داخلها فكان مُخصَّصًا للأثْرياء، وكانتْ مُكتظَّةً بعائلةٍ منهم.

وعندما وصلنَا إلى مكَّة، وإذا بربّ تلك العائلة يتلفَّتُ يمينًا ويسارًا، فشعرتُ أنَّه يبحثُ عن شيء، فسبقني الفضول وحُبّ النَّجدة لسؤاله عمَّ يبحث؟

فقال: أبحثُ عن حمَّالٍ يحملُ متاعنا، فقلتُ: أنَا لها، وسُرَّ بذلك، فاتَّفقنا على أربعِ ريالاتٍ مقابل ذلك، وحمدتُ الله على فضله لأنِّي وصلتُ لمكَّة في زمنٍ قياسيّ بدون مُقابل، وكان هذا أوَّل الرّزق.

انطلقتُ إلى مسْكن جماعتي، وكانوا غالبًا ما يجتمعون في مقهىً يعرفه الجميع، فيه أكلُهم، وشُربهم، ومتاعُهم، ومبيتُهم.

فانخرطتُ في أعمال الحجّ معهم، وفي غضون ثلاثةِ أيَّامٍ جمعتُ ستّين ريالًا، عندها وصل ابن عمّتي ورِفَاقه شُعثًا غُبرا، أرهقهم طُول السَّفر.

فرحَّبتُ بهم، وبشَّرتُهم، -وخصصتُ ابن عمّتي ببعض خبري لقُربه مِنّي- بعِوض الله لي عنْ أُجْرة الرُّكوب، وما فتحَ الله به عليَّ مِنْ مال، فسرَّهم حالي.

وغبطني الجميع على فعْلتي، وندمُوا أشدَّ النَّدم على فعلهم وشُحّهم، فحدَّثوني عن بعض مُعاناتهم في السَّفر فقالوا: انقطعَ بنا الماءُ مُبكّرًا، ولم نجد مَوْردًا في طريقنا، وجفَّ خُبزُنا وتحجَّر، فأصبحَ أكْلُهُ عِبْئًا علينا، وزاد في ظمئِنا وسوء حالنا!

فدعوتُهم إلى الغَداء وسرَّهم ذلك، وطلبوا منّي الإكثار مِنْ الشُّربة لشعورهم بالجفاف.

فكانت تجربةً فريدة في حياتي؛ فتح الله بها عليَّ من بركات مكّة، وخدْمة ضيوف الرَّحمن في ذلك الموسم.

فوائدٌ تربويَّة:

١- **(وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ)** (البقرة - الآية ٢١٦).

٢- يُوفّق الله عباده المُؤمنين لفعل الخيرات، ويختار لهم الخِيَرة الصَّالحة.

٣- قدْ يُقدّر الله على عباده شرًا، ولكنّه ليس بالشَّر المُطلق، بل يكتنفهُ الخير الذي يجهلهُ العباد، كما أنّه يُقدّر المِحْنة فيجعلها مُنطويةً على منحٍ وعطايا ربّانيّة.

البكاءُ تحتَ الحِمْل الثَّقيل

يقولُ والدي -رحمه الله-: أشْغلني أمرُ الرّيال الّذي كان يتوفّر مع الآخرين ولا يتوفّرُ عندي، وبذلتُ كُلَّ ما في وِسْعي للحصول عليه، فسلكتُ كلَّ طريقٍ مُشْرف، وكلُّ طريقٌ يُرضِي الله أولًا، ويحفظُ ماءَ وجهي ثانيًا.

وسافرتُ مَعَ مَنْ سافر إلى الطّائف؛ بحثًا عن لُقمة العيش، فاشتغلتُ حمّالًا لأحصلُ على هذا الرّيال.

فأبي كغيره، كان شابًّا في مُقتبَل العُمر، ينعمُ بصحةٍ وعافية، يعملُ بجدٍّ وإخلاص وحبٍّ للعمل، وكان يجدُ راحةً عجيبةً كلّما أنهى عمله، لا تُهمّه الأُجرة بقدر ما يُهمّه الدّور الإيجابيّ في الحياة؛ يُعين هذا، ويُرشد ذاك، ويحملُ متاع هؤلاء، حتّى إنّه بعد التّفاوض والاتّفاق على الأُجرة قدْ ينْساها، وقد تكونُ أقلّ ممّا يبذلُ مِنْ جهد، وكُلُّ هذا لا يُؤثّر على أداء عمله على أتمّ وجهٍ وأحْسنه.

فرُبّما خطرَ في ذهني أنّ العميل لا يستحقُّ كلّ هذا الإخلاص، لا سيّما إنْ كانت الأُجرة لا تتناسبُ مع الجُهد المبذول، ولكنّه بهذا رسّخ لديّ قناعةً مفادُها أنّني أنا الأوْلى بهذا الإخلاص والتّفاني؛ لأنّ الأعمال منوطةٌ بالنّيات وما يستقرُ فيها، وعليها يترتّبُ العوض من الله -عزّ وجلّ-.

ففي يومٍ من الأيّام طلب منّي شخصٌ أن أُوصل له كيسًا من الخَيْش بقامتي، فحملتُه على ظهري لداره، خارجَ أسوار الطّائف في حيّ مَعَشّي الآن، فالمسافة لا تقلُّ عن كيلو متر، والأرض الّتي أسلُكها خاليةً من العُمران، والشّجر، والحَجَر، فما وجدتُ شيئًا مُرتفعًا أضعُ عليه الكيس؛ لكي أرتاحَ وأستعيدَ نشاطِي وقوّتي، وبعدها أُكمل المسير.

وقعْتُ في حَيْرةٍ وكربٍ شديد، إن استمريتُ في المسير فقد بلغتُ مِنَ الجُهْد ما أفْقدني صوابي وعزمي وقُوَّتي، وإن وضعتُه على الأرض فلن أستطيعَ حملهُ مرةً أُخرى، وإيصاله لبيته أمانةٌ عليَّ الوفاءُ بها.

حينها انهرتُ بالبُكاء وأنَا أحْملُ ذلك الكيس، فسألتُ الله سؤالَ من يُحسن الظنَّ بربِّه، سؤال مَنْ يعتقدُ ويُؤمنُ إيمانًا جازمًا بأنَّ الله يسمعُهُ ويراه، ولا تخفى عليه خافيةٌ من همٍّ أو حَزَن، فقلتُ مُناجيًا: يا ربِّ إنْ كان لي رزقٌ في غير هذا العمل فيسّرهُ لي، وأعْفني من العمل في الحِمَالة.

فما إنْ عُدتُ إلى السّوق إلّا وبوادر الاستجابة قد لاحت لي، حينها كنتُ أشعرُ بأنَّ عضلاتي تمزّقت، وقُواي خارت، وإذا بصارخٍ يصرخُ باسمي قائلًا: يا عيسى جاء رجلٌ يبحث عنك منذُ ساعة، لم يدع أحدًا في السُّوق إلّا وسأله عنك.

فقلتُ: دُلُّوني عليه، فجاءني ورحَّبتُ به، ثمَّ سألتهُ عن حاجته لأقضيها له، فإذا هوَ في كربٍ شديد، وظهر لي مِنْ شدَّة رجائه وتوسُّله أنَّه في ضيقٍ، وفرجُه -بعد الله- عندي.

فقلتُ: ما حاجتك؟ وإنْ كانت عندي فأبشرْ.

فقال: أنا أعملُ في الحَويَّة، عند الخاصَّة الملكيَّة بقصر الملك سعود -رحمه الله-، وحصل لي ظرفٌ طارئٌ في الديرة (الباحة)، وأنا مُضطرٌّ للسَّفر والمُغادرة، لكنَّ رئيس العمل يقول: لن أسمحَ لك إلّا بوجود بديلٍ ينوبُ عنك في العمل لحاجتنا الماسَّة.

فعلمتُ أنَّ تلك الدمعة، وتلك الدَّعوات قدْ صعدت للسَّماء، وأنَّ هذا هو الفرج، فكم من ضيقٍ لعبدٍ يكونُ فرجًا ومخرجًا لآخر، وكما قالوا: مصائبٌ قومٍ عند قومٍ فوائدُ.

فقلتُ له: أبْشِر بما يسرُّك بإذن الله.

فقال: هيَّا بنا معي، فظننتُ أنَّه سيذهبُ بي إلى مقرّ عمله، فاذا به ذاهبٌ إلى خان الخيَّاطين، فاشترى لي ثوبًا وعِمَامة، وطلبَ منّي أنْ أتخلَّص من ملابسي الرَّثَّة، المليئةُ بالدَّبس والقَمْل والغُبَار، وأن أغتسلَ وأتطيَّب وألبسَ ملابسي الجديدة.

نفَّذت ما طلبَ منّي، فلبستُ ملابسي وإذا بي لم أعرف نفسي، فأصبحتُ في الهيئة والتَّأنُّق كحالِ مَنْ أعملُ عندهُ خادِمًا!

وبالفعْل استلمتُ عملي، وشعرتُ بكرم ربّي، فانتقلتُ -بفضل الله- من حمَّالٍ إلى مُوظَّفٍ مسؤولٍ عن مفاتيحَ وعُهَدِ سكن الملوك، في الفِلَل الخاصَّة بالملك وأهل بيته.

وكان في هذا العمل من الرَّاحة وقلَّة الجهد ما جعلنَي أعملُ كُلَّ شيءٍ يحتاجُ إلى يدٍ كادحةٍ، وإلى جسدٍ نشيطٍ وثَّاب، حتَّى إنَّني عطَّلتُ كُلَّ من حولي، فأنَا مَنْ يقومُ بعمل كُلّ شيءٍ بالنّيابة عنهم، بل إنَّ ما أقومُ به من أعمالٍ في يومي ليست -في الحقيقة- مِنْ صُلب عملي، ولكنّي أراها لا تعدلُ تعبَ حَمْل الكيس الّذي قصم ظهري.

فوجدتُ من رئيسي راحةً وسعادةً بتفانِيَّ في العمل، فلا يكادُ يكلفني بشيءٍ إلَّا قمتُ به على أكمل وجهٍ، بكلّ سعادةٍ وسرور.

فكنتُ بطبيعتي أعملُ بإخلاصٍ وأمانة، وكنت أرى أنَّ هذا من الفِطْرة السَّويَّة، وأنَّه الأليقُ بالمُسْلم، وبكلّ رجلٍ حُرٍّ يُهمّه كسبُ المال الحلال.

ولكنَّ ذلك الأمر لقيَ استغرابًا عند رئيسي، فوجدني مُختلفًا عن غيري، ولم يجد لذلك تفسيرًا، وكان -لعدم معرفته بي- يظُنُّ أنّي أتكلّفُ هذا الجُهْد والخُلق.

مرَّت الأيَّام وكانت المُدَّة الَّتي أنوبُ فيها عن صاحبي شهر بالتَّمام والكمال، ثُمَّ يعودُ على رأس عمله، وأعودُ إلى الحِمَالة الَّتي فَرزْتُ منها بدعواتٍ ودُموعٍ صادقة.

فُكنتُ في حَيْرةٍ من أمري، إذ كيفَ لعاقلٍ أنْ يترُكَ هذه الرَّاحة وهذا الأجرَ الَّذي ما حلمتُ به، ولم يتطلَّب منّي أدْنى مجهود، فكيف أعودُ لمَا كنتُ عليه؟!

ولكنَّ رئيسي قرَّرَ ألَّا يُفرّط في إخلاصي، فأعلنَ للجميع قائلًا: من كانَ يرغبُ في تقْديم إجازة من العمل لمُدَّة شهر أو أكثر فليفْعل، وراتبهُ سينتقلُ إلى (عيسى) حتَّى يعود.

فرح الجميعُ بذلك؛ رغبةً في بقائي معهم، لمَا وجدُوا فيَّ من تفانٍ وإخلاص لا أتكلَّفُه، ورغبةً في الحُصول على إجازةٍ يستجمُّون فيها معَ أهاليهم، لا يحملون فيها همَّ العودة وانتهاء المُدَّة، فمتى طابَتْ أنْفسهم عادوا إلى عملهم.

مكثتُ على هذا عدَّة أشهرٍ، وأنا أنوبُ عن هذا وذاك، حتَّى قرَّر المسؤول توظيفي رسميًّا في الخاصَّة الملكيَّة، وأتممتُ فيها ست سنوات.

تزوَّجتُ خلالها، وأنجبتُ، وتعلَّمتُ الخياطة، واقتنيتُ ماكينةً لها، وكنتُ أُخيطُ -في فراغي- ملابسَ لأهل البادية، بسيطةً في خياطتها، مُتواضعةً في تفاصيلها وأقْمشتها، وحصَّلتُ منها دخلًا مُباركًا.

فوائدٌ تربويّة:

١- الأمانة حِمْلها عظيم، والصَّبر عليها شاقّ، ولا يُوفَّق لذلك إلَّا من ارتضاهُ الله لتقواه.

٢- الدُّعاء الصَّادق، ودعاءُ المُضطرّ، ودعاءُ الخَلْوة، ودُعاء اليقين، دعاءُ من يؤمن بأنَّ الله أقربُ إليه مِنْ حبل الوريد، ومَنْ يُحسن الظَّن بربّه، كُلُّ هذا واقعٌ لا محاله، في وقته المُقدَّر عاجلًا أم آجلًا.

عِيْدَان تخْطِفُه الجِنّ

يقول والدي -رحمه الله:-

في مساءٍ ساكنٍ من ليالي ضاحية **الحَويّة**، شمال الطائف بنحو خمسةٍ وعشرين كيلومترًا، كنتُ برفقة صديقي **ضيف الله العتيبي** في مقرّ عملنا، نُشرف معًا على فِلَلِ القصر الملكي، وذلك في مطالع عقد السبعينيات الهجرية (١٣٧٠هـ تقريبًا).

وبينما الليلُ يُدني سدوله، إذا ببابنا يُطرَق، وإذا بضيفين كريمين من جماعتنا، **حسن وعيدان**، قد حلّا علينا.

ما أسعدني بلقائهما! لقد حملَ قدومُهما إليّ عبقَ الديار، وأخبار الأهل، وهمسات الزرع والمطر، ونبض الأسواق والمناسبات، تلك التي نشتاق إليها كما نشتاقُ إلى والدينا... بل أكثر.

رحّبتُ بهما ترحيبًا يليقُ بفرحة قدومهما، وبشوقي لمَا معهما من أخبار، فقدّمتُ لهما القهوة والشّاي، وجرَتِ العادة عند احتسائها أنْ تبدأ معها نشرة الأخبار، وأقْصدُ بها علوم الدّيرة والسّيرة، وتشمل الأخبار الخاصّة والعامّة، وأهمُ خبرٍ هو معرفة سبب قدومهما.

فيبدأُ الضّيف قائلًا: ما عندنا من العُلوم إلّا سلامتكم، وصلاةٌ على النّبي -عليه الصّلاة والسّلام-، ثمّ يستهلُّ بجُملٍ فيها من البلاغة وقوّة العبارة ما فيها!

فيتمُّ سرد الأخبار بدءًا بالعامّ منها، كأخبار القرية وأهلها، وانتقالًا إلى الخاصّ منها فيما يتعلقُ بأُسْرةٍ بعينها، وما حصل معهم من أُمور الحياة: كصحّةٍ أو زواجٍ أو وِلادة، في إلقاءٍ بديع يشُدُّ الأسماع مِنْ حلاوته، ويكونُ الكلامُ من طرف الضّيف القادم، لا يُقاطعهُ أحدٌ حتّى ينتهي من سرْد الأخبار، ويُنهي علومه بقوله: "هذا ما نُعْلمْكُم به، وما نتقفّى به عُلومكم وسلامتكم".

ثمَّ يأتي الرَّدُ من المُضيف، بنفس السَّرد والتَّرتيب، مع التَّعليق على ما سمع من أخبارٍ دون مُقاطَعةٍ أيضًا[٥]، وهذا من تمام أدبهم ومُروءتهم.

وعندما بدا ضيفي (عِيْدان) علومه أوقفتُه قائلًا: عِلْمُك على بَالَك، وقهوتُك بين يديك، فحيَّاك الله وبيَّاك، ليلنا طويل نُجهّز فيه عشاكم ونتعالم إلى الفجر، ثمَّ غادرتُ المَجْلس وفيه ضيفايَ (حسن وعِيْدان)، ومعهما زميلي في العمل والسَّكن (ضيف الله)؛ لأتفرَّغ لصنع العَشاء.

جهَّزتُ العَشاء وقدَّمته لضُيوفي، ولكنّي لم أجد (عِيْدان)، فسألتُ عنه (حسن)، فقالَ: هذا فنجان الشَّاي لم يشربْ منهُ شيئًا، فرُبَّما خرج ليقضي حاجته ولعلّه يعُود.

انتظرنا عودته، ولكنَّ الانتظار طال.

خرجتُ خارج منزلي أدعُوه باسمه (عِيْدان.. عِيْدان.. عِيْدان)، لعلّه يُجيب، ولكنْ لا مُجيب، وفي كلّ مرَّة أرفعُ بها صوتِي وأمُدُّه لعلّه يصِلُه، ولكن لا مُجيب.

رجعتُ أدْراجي عند ضيفي (حسن)، أسألهُ هل أنْكرتَ على (عِيْدان) شيئا؟ أو لاحظتَ عليه أمرًا؟ هل به مَسٌّ أو جنون؟!

فقال: لا شيء من هذا، ولم أعرف عنه إلَّا كُلَّ خيرٍ وثباتٍ وعقل.

---

٥ وهذا أنموذج لعلوم السّيرة والدّيرة كما نُسمّي، يقول الضيف بصوت عال: "العلم لكم خير"؛ حتّى يجلب الانتباه ويُنصت الحضور، فيسودهم الصّمت فلا تسمعُ منهم همسًا، فيرد عليه المُضيف قائلًا: "يا الله في الخير" إيذانًا بالبدء، بعدها يبدأ الضّيف بسرد العلوم قائلًا: "من وادينا والله هادينا، الديرة والسيرة واحدة، لا واردة ولا شاردة، سارّة قارّة، ما طاري خلاف، والله لا يجيب الخلاف، الأرض ممطورة ونرجي من الله أن يطرح البركة، لا مريض ولا عريض، لا نروح بعيد ولا نجيب علم جديد، وغيرها سهود ومهود، ويتمُّ سرد أسعار البيع والشّراء للحبوب، والمواشي، وغيرها، ويختم عُلومه بقوله: "هذه علومنا وما نتقفّى به علومكم وبقاكم".

فيكونُ ردُّ المُضيف -منطلقٌ من آخر كلمة ختم بها الضّيف علومه-: "بقيت ولا شقيت، حيّاك الله وحيّا عُلومك، السّيرة والدّيرة واحدة من عندنا إلى عندكم، أسواقنا وأسواقكم واحدة، ولا عنكم شيء خافي، الحلال مثل ما قصّيت وعديّت، العُربان طيبين وما طاري خلاف، الزّراعة لا بُدّ أنّك مرّيت ورأيت، الأمطار عند الله الخير الكثير، أمّا عن شأن مجيئك فالله يحييك لحاجة ولغير حاجة، ولا لك مستنكر، أمّا من يمّ عازتك فاعتبرها مقضيّة ولو مشريّة، وهذا فيما نتقفّى به علمك وعُفاك".

أحْضرتُ الإتريك -وهو مصباحٌ قويّ الإضاءة، يتجاوز خمسمائة شمعة، يعمل على الكيروسين-، وفي ذلك الوقت لم يكن لدينا كهرباء، ولا حتّى مصباحٌ يعملُ بالبطّاريّات.

اصطحبتُ ضيفي وصديقي، وتركنا عشاءنا على السُّفرة كمَا هو، واتّجهنا خارج المنزل بحثًا عن (عِيْدان)، تحت كُلّ شجرة، وفي كُلّ حُفْرة، حتّى ينْسنا من عودته.

خطرتْ لي خاطرةٌ فقلت لهما: عُودَا إلى البيت، وأنَا سآتيكم به إنْ شاءَ الله.

فذهبتُ إلى مركز الشُّرطة، وخاطبتُ الضابط المُناوب بلهجةٍ حازمة وجدية، قائلاً له:

"أنتم حُرّاس الأمن خارج البيوت، ونحنُ مؤتمنون على مَن في داخلها؛ فهل يُعقل أن تقبضوا على كلّ من يزورنا، ونقبض نحن على من يزوركم؟"!

تعجّب الضابط من نبرتي، وحدّق فيّ بدهشة، ثم قال: "ما عرفتُك إلّا صادقًا جادًّا، ولا أراك هنا مازحًا. أخبرني، ما الذي حدث؟"!

فأخبرتُه، وقال حالفًا بالله: لو وجدنا شخصًا سارقًا، وسرقتُه على كَتِفه وقال: أنَا ضيفٌ عند فلان، لأخذنا منهُ سِرْقته، وأطْلَقنا سراحه، فضيْفُك ضيفُنا.

تيقّنتُ مِنْ صدق وجدّيّة الضّابط، فسقطَ مِنْ يدي آخرُ أملٍ عندي، ورجعتُ لضيفي وقد بردَ العَشاء، فتناولناهُ على مضض، وكأنّهُ غَصّةٌ في نُحورنا.

أمَّا أغراضُ (عِيْدَان) فبقيت حيثُ تركها بطرف الغُرفة: بطَّانيَّة، مَصْنَف[٦]، وعُكَّة سمن، وعُكَّة عسل.

وفي اليوم الثَّاني بوضُح النَّهار بحثنا في كلّ مكانٍ، وتحتَ كلّ شجرة، وداخل كلّ حُفرة أو بئر، ولكنَّنا لم نجد له أثرًا، وكأنَّ الأرض ابتلعتْه.

فطلبتُ من (حسن) أنْ يبقى عندي هذه اللَّيلة لكنَّه رفض بشدَّة، فهو عازمٌ السَّفر إلى مكَّة، وقال لي مازحًا: يكفي أنَّ (عِيْدَان) اختفى البارحة، فهل تُريدني أنْ أختفيَ اللَّيلة.

عندها تعاهدنا ألَّا نذكر اسم (عِيْدَان)، ولا نأتي بسيرته حتَّى يُظهرَهُ الله لنَا، فليس لنا سببٌ في غيابه.

بعد شهرٍ نزلتُ لمدينة الطَّائف، والَّتي تبعد عن سكني خمسًا وعشرين كيلو متر، فتفاجأت بشخصٍ يسعى خلفي مُناديًا، فتوقَّفتُ لكي أرى ماذا يُريد؟ وإذا به يسألُني عن أغراض (عِيْدَان).

قلتُ: ومن (عِيْدَان) هذا؟

فعرَّفني بشخصه، وأخبرني أنَّ (عِيْدَان) كان مع (حسن) منذُ شهرٍ في ضيافتي.

فقلتُ: لا أعرفُ ماذا تقصد! (وفي داخلي أتساءل: هل يُعقل أنَّ (حسن) أخبرهُ عنْ سِرّنا؟!).

فسألتهُ مرةً أُخرى، من هو (عِيْدَان) وما قصَّتُه؟ فأخبرني بحقيقةٍ لا يعرفها إلَّا (عِيْدَان)، وبتفاصيل أغراضه الَّتي تركها عندي، وأنَّ (عِيْدَان) عنده في الدُّكان يصارعُ الحُمَّى، عندها علمتُ أنَّ الخبرَ

---

٦ المَصْنَف: زيٌّ شعبي، يُلبسُ كمئزر للرجال والنِّساء أحيانًا، وفي زماننا وجودهُ عملةٌ نادرة، ويُعتبرُ من الهدايا المُحبَّبة، يتوارثه الأجْيال جيلًا بعْد جيل، وعند الحاجة للنُّقوده يُباع كالذَّهب، شريطة أن يكون نظيفًا وغيرُ مُتهالك.

صحيح، فأردتُ أن أرعب (عِيْدَان) كما أرعبني، وأعيّشه في الهمّ الّذي عشتُه.

فقلتُ له: اذهب إلى (عِيْدَان)، وإيّاك أن يغادرَ مكانه حتّى أعودَ إليك بشُرطيّ يقبضُ عليه؛ فرجلٌ أستضيفهُ في بيتي، ويخرجُ في ظروفٍ غامضة، ويسرقُ مِنَ الفِلَل المُجاورة، وسُجنت بسببه، ويخرجُ بكفالة، وبعْد هذا كُلّه لن أسمحَ له بالفِرار، وأنتَ مسؤول عنه بعد الآن.

فقال: وما ذنبي، وماذا فعلتُ؟ فكادَ عقلهُ أنْ يطير.

وكان هدفي مِنْ هذه الدّراما أنْ ينتقلَ الشُّعور الّذي جثمَ على قلبي شهرًا كاملًا إلى (عِيْدَان)، فكانَ ذلك.

فمَا إنْ وصلَ الخبرُ إلى مسامعه إلّا وفارقتهُ الحُمّى، وتصبَّب عرقًا، وارتعد جسدهُ من البرودة، فقفزَ وكأنّه نَشِط من عقال، وفرَّ إلى موقف السّيارات عازمًا السّفر لقريته الّتي تبعد ٢٥٠كم.

فيحتاجُ ثلاثة أيّام بلياليهنّ، وهو غالبًا سينتقلُ بسيارة (لُوري) في طريقٍ تُرابيّ، تحملُ الكثير من البضائع والمُؤَن، والقليل من الرُّكاب.

وكانت الأسواق تفتحُ في يومٍ واحدٍ بالأسبوع، وتختلفُ أيّامهُ من قريةٍ لقرية، ويُؤخذُ بعين الاعتبار القُرب والبُعد ليُغطّي احتياجات أهل المنطقة، وهذه السّيارات برحلاتها المُجدولة تفي بهذا الغرض.

فتوجّهتُ إلى دُكّان السّائل عن (عِيْدَان)، وسألتُه أين هو؟

فقال: بمجرّد ما سمعَ الخبر انتفض من فراشه كطائر، ونسيَ الحُمّى، وغادر مُهرولًا إلى مواقف السّيارات، عازمًا السّفر لقريته، وعجزتُ أن أُثنيه عن قراره.

اكتفيتُ بهذا الخبر، واطمأنّ قلبي عليه، فكلُّ الّذي أرجوهُ أن يكونَ بخير، وألّا يحصلَ له مكروه.

فعدتُ إلى سكني، وأهديتُ عُكّة السّمن والعسل إلى مسؤولي في العمل؛ تعبيرًا عن فرحي بسلامة (عِيْدَان)، وصعوبةً في بقاء أغراضه عندي، فأنّا في الغالب لن ألتقيَ به إلّا بعُطْلة الصّيف، واستبقيتُ البطّانيّة والمَصْنَف لأُعيدها له.

وبعد أشهرٍ سافرتُ للجنوب، ومررتُ بقريته وهو يديس[٧] المحصول الزّراعي، فناديتُه بصوتٍ عالٍ (عِيْدَان)، فأجاب النّداء بنخْوة العربيّ وفزعته.

فقلتُ له: أتظُنُّ أنّك في هذا الشّعب بعيدًا عن يد السُّلطة؟ فخلع رداءه، وأخرجَ جُنْبِيّته، وقدّمها لي قائلًا: هذا مِعْدَالي[٨] إنْ أخطأت في حقك.

فقلتُ له: لا تَعْدِل لي، وإنّما عدّلْ لمن اعتديتَ على مُمتلكاتهم!، فاقتربتُ منه، وحيّيتُه، وبادرتُه كالعادة بعلوم الدّيرة والسّيرة، ثمّ استمعتُ لعلُومه، وكشف لي عن سرّ غيابهُ، فقال بعد مقدمته: "هذا ومن يمّ تلك اللّيلة، وبعد أن قدّمت لنا الشّاي، مددتُ يدي على كيسي الّذي فيه التّنباك لأفتلَ لي سيجارة -فهي تحلُو لي مع الشّاي-، فتفاجأتُ بأنّ صُرّة نقودي غير موجودة، وفيها ما يُقارب مِنْ مائة ريالٍ أو أكثر[٩].

فتذكّرتُ بأنّي جلستُ في مكانٍ بالطّائف، وأخرجتُ فيه صُرّة نقودي من الكيس، وأظُنُّ أنّي لم أُعدها لمكانها، فخشيتُ أنْ أُخبرك فتمنعني من الخروج لأبْحثَ عنها، فقلتُ سأخرجُ خلسةً، وسأسيرُ على الطّريق حتّى تمرَّ بي سيارة فتنقلني للطّائف.

---

٧ الدّياس: دياسةُ المحصول الزّراعي بواسطة الثّيران قديمًا.

٨ المِعْدال: شيءٌ له قيمة، يكون رهينةً عند الطّرف الآخر؛ حتّى يُوفي بحقّه، ويُعوّضه عن خطئه بما يحكم به العُقلاء.

٩ مائة ريال في ذلك الزّمان تعدل رواتب بضعة أشهر.

وظننتُ أنني سأعثر على صُرّتي سريعًا، ثم أجد سيارةً عائدةً فأستقلّها للرجوع إليكم.

كنتُ أتصوّر أن الأمر لن يطول، وأنت لا تزال على حالك، منشغلًا بإعداد عشائك. لا تزال منهمكًا في إعداد عشائك.

فـ "الحويّة" كما تعلم، تقع على طريق المسافرين بين مكة والطائف، وكنتُ على يقين بأنني سأعثر على سيارة تُقلّني قبل أن يبرد طعامك.

وللأسف ساءت ظُنوني، فلم أجد سيّارةً على الطّريق، فسرتُ على قدمي حتّى الطّائف، ووجدتُ صُرّتي حيثُ تركتها لم يمسّها بشر، وعندما أردتُ العودة لم أجد سيارةً أيضًا، ولم تعد تحملني قدمي على السّير.

وفي اليوم التّالي ركبتُ سيارةً مُتّجهةً إلى مكّة، وقلتُ للسّائق: إذا وصلْنا للحويّة فتوقّف؛ أُريدُ أنْ أنزل هناك، -وكما تعْرف- إذا ركبتُ سيّارةً أُصابُ بالدُّوار الّذي لُا أدركُ معهُ شيْئًا.

توقّفت السّيارة، ونادى السّائق على الرُّكّاب -حينما وصلنا إلى ميْقات قرن المنازل- قائلًا: مَنْ أراد الإحرام فلينْزل.

فقلتُ للسّائق: ألم أطلب منك التّوقف في الحويّة؟! فقالَ: نسيت، وإن أردتَ العودةَ أعدتُ لك الأُجرة.

فقلتُ في نفسي: من الصّعب أنْ أنتظر سيّارة، ولكن سأُواصل سفري معهم، فهذا كُلُّ ما حصل معي، ولعلّك تعذُرني.

انتهى عِلْمه، وقبلتُ عذْره، وقلتُ له لائمًا: ولماذا لمْ تُرسل لي رسالةً أو بَرْقِيّة؟! فقال: هذه لا تخطرُ على بالي، ولستُ مِنْ أهْلها.

أعطيتُه بطّانيّته ومَصْنَفه، واعتذرتُ منه في عُكّة السّمن والعسل.

فقال لي: ألا يُطالبني أحدٌ بشيء؟ ألستُ مطلوبًا للسُلطة؟ فأخبرتهُ بحقيقة الأمْر، وسُرَّ بذلك وعذرني، وأباحني في عُكَّة السَّمن والعسل.

فوائدٌ تربويَّة:

١- الكريمُ تغمُره السَّعادة بحلول الضَّيف بداره، ويطيبُ له مشاركةُ الغير في طعامه وشرابه، وهي فضل من الله ومنَّة، يهبها لمن يشاءُ من عباده.
٢- قد يُبتلى المرءُ بأمرٍ لا يُعرف أسبابه، ولكنْ لله حكمةٌ يريدها.
٣- الغفلةُ تقع من الشَّخص حينما يكون في بيئة تختلفُ عن بيئته، وثقافةٍ تختلفُ عن ثقافته، وأحداث يعيشُها لأوَّل مرَّة.
٤- للغائب عذرهُ حتَّى يعود.

عيسى جابَ الدَّاعي

يقولُ والدي -رحمه الله-: بتُّ ليلةً في غرفتي داخل الفيلّا، وفي جانبي الغُرفة نوافذَ مِنْ زُجاج، فسمعتُ مُناديًا ينادي باسمي، وأنا في غفْوتي، فلستُ أدري أ حقيقةٌ أمْ خيال.

تكرَّر النّداء، فقلتُ: جابَ الدَّاعي، انتظرتُ قليلًا لعلّه يُعيدُ نداءه، ولكنّي لم أسمع أيَّ صوت!

قلتُ: لعلَّ أحدهم جاء ليتأكّد من وُجودي فحسْب، فعدتُ لوسادتي مُواصِلًا نومي، ولم أكترثْ بالأمر.

وبمجرّد ما دخلتُ في غيبوبة النَّوم، وإذا بي أسمعُ النّداء ثانيةً، أجبتُ ولكنْ لا أحد!

فخشيتُ أن يكونَ الأمرُ دُبّرَ بليل، وأنَّ هناك سوءٌ سيلحقُ بي، فلو بقيتُ في غرفتي فلا ضيْر عليَّ من اقتحامه لها، بل إنَّ هذا لن يحصل؛ فالأبواب مُؤصدة، والنَّوافذُ مُحْكَمة.

ولكنْ خشيتُ أن يرميَ الزُّجاج بالحجارة، وحينها سيحلُّ بي الخطر، فقرّرتُ الخروج حتَّى أقف على الحال، وأعرفُ مَنِ المُنادِي.

خرجتُ وفي إحدى يديَّ مِشْعابي، وفي الأُخرى مُسدَّسي، فإن كان العقل واللّباقة تكفي للتّفاهم معه، وإلّا ننتقلُ إلى المشعاب، فإن لم يُجدِ المِشْعاب نفعًا، فأنا مُضْطرٌ للسّلاح؛ لأنّي في خلاءٍ مُوحِش لا إنْسَ فيه إلّا أنا وزميلي (ضيف الله).

فتحتُ الباب بحذر، وخرجتُ مُلْتفتًا يمنةً ويسْرةً، ولكنّي لم أرَ أحدًا، فعدتُ إلى غُرفتي، وتوسَّدتُ وسادتي، وما إن وضعتُ رأسي عليها إلّا وشعرتُ بأنَّ خيلًا تركض في غرفتي، حينها أدركتُ أنَّ الصوتَ صادرٌ من الجانّ؛ يريدون إخافتي، وأنّا مُطْمئنٌّ القلب لا أخشاهم، وإنّما أخشى الغادرَ من بني جلدتي!

فقمتُ وتوضَّأتُ وصليتُ ركعتين، وبعدها أوقدتُ الفانوس، وقرأتُ من القرآن ما تيسَّر لي حتَّى غلبني النَّوم، ويبدو أنَّني نُمْتُ نومًا عميقًا لم أنمْ مثله قبل، وكان هذا ديْدني كُلَّ ليلة.

فوائدٌ تربويَّة:

١- النبيُّ ﷺ نهى أنْ يبيتَ الرَّجلُ وحده، أو أنْ يُسافرَ وحده.[١٠]

٢- الشَّيطانُ عدو الإنسان، يُخوّفه، ويُرعبه، ويُوحِشَه، ويكيدُ له، ولكن بالصَّلاة وذكر الله يصبحُ كيد الشَّيطان ضعيفًا.[١١]

١٠ أخرجهُ البُخاريّ (٢٩٩٨) بنحوه، وأحمد (٥٦٥٠) واللَّفظ له.

١١ (إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)، النساء - ٧٦

حُلم ضيف الله

بحلول فصل الصَّيف كان صديقُ والدي (ضيف الله) يُفضّل النَّوم خارج الغرفة، فينامُ في الحوش، بينما والدي ينامُ داخل البيت.

يقول والديّ: وذاتَ يومٍ تفاجأتُ بصراخ صديقي صرخةَ المُستغيث، هرولتُ مسرعاً لأنظر ماذا جرى؟ رُبّما أصابتهُ لدغةُ ثُعبانٍ أو عقْرب، أو اعتدى عليه كلبٌ أوْ سبُع؟

اقتربت منه وهو يصرخُ قائلًا: أدركني، أدركني.

فقلتُ: ماذا جرى لك؟ خيرٌ إن شاء الله.

فقال: اعتدى عليَّ مجموعةُ رجالٍ من بني فُلان، وقطعوا يدي، وكان المكان مُظلمًا إلّا مِنْ أنوار النُّجوم الّتي ترى الجسدَ معها دوْن ملامحه.

وأنَا بين مُصدّق ومُكذّب، فأمسكتُ به من كتفيه، ومسحتُ ذراعيه من أعلاها إلى أسفلها ولكن لم أجد شيئًا ممًا ذكر.

فقلتُ له: يداكَ سليمتان، وكفُّك في كفّي.

فقال لي: انظر إلى كفّي، إنّها ملقاةٌ على الأرض.

أدخلتهُ الغرفة، وأشعلتُ المصباح، وراحَ يتفقّد كلتا يديه، وإذا بهما سليمتان، فتصبّب عرقًا وقال: حسبي الله على فلان -أخوه- فقلت: أخبرني ما الذي حصل؟

فقال: أتاني أخي وقال لي: حصل خلافٌ بيننا وبين فلانٍ وإخوته، فقطع أخي يد فلانٌ منهم، وأخشى أن يأتوكَ وينتقموا منك، فكُن على حذر.

نمتُ والكلامُ لا يزالُ صداهُ يتردّد في ذهني، ولم أتوقّع مجيئهم عندي، وإذا بهم بضعةٌ أشخاصٍ يهجمون عليَّ، ومنهم من يُمسك

يدي، ومنهم من يقطع كفّي حتّى فصلوها، فرموها أمامي وغادروا المكان، وكان ذلك حُلْمًا.

فقال أبي: ومن بعدها وصديقي لم ينم وحده، ولم ينم خارج الغرفة.

فوائدٌ تربويّة:

١- ترويعُ المؤمن لا يجوزُ في حقّه.

٢- يجبُ على المرء أن يخبرَ أحبَّ الناس إليه بحاله، أو من يكون شريكًا له في دارٍ أو عمل؛ حتّى يكون على بيّنة من أمره، ويستطيعُ تقديم يد العون له عند حاجته.

طلبُ سداد الدَّين

يقول والدي: قرَّرتُ الزواج من والدتك، واتَّفقنا على المهر ثلاثمائة ريالٍ فضَّة، وبدأت أجهزُ لهذا الأمر، وكان لي دينٌ عند أحدهم مقدارهُ عشرون ريالًا فضَّة، وهي تعادل في ذاك الزَّمان ثمن عشرين خروفًا مِنَ الحجم الكبير.

والمكان المُناسب للقاء صاحبِ الدَّين سُوق رَغْدان، وكان يُقام في كلّ يوم أحد، فالتقيتُ بصاحبي، وأعطيتهُ أخبار الدّيرة والسّيرة، ثمَّ عرضتُ عليه حاجتي، وأخبرتهُ أنَّني مُقدمٌ على الزَّواج، والآن جاء موعد السَّداد، وإن تيسَّرت الأحوال فلا بأس بالمُساعدة.

رحَّب بي، وردَّ على علومي بمثلها، إلَّا أنَّه اعتذرَ منّي هذا الأُسبوع، وطلب منّي تمديدُ المُهلة لأُسبوع آخر؛ فلديه قمحٌ سيبيعُه ويُسدّد منه دَيْني، سرَّني ردُّه، وعدتُ أدراجَ البيت مشيًا على الأقدام كما ذهبت.

وكعادتي أخبرتُ والدي بما حصل في سياق علوم الدّيرة والسّيرة[١٢]، وردَّ عليَّ بمثلها، وأشادَ بصنيعي، وحمدَ الله على عودتي سالمًا، ودعا لي بالتَّوفيق والسَّداد.

جلستُ أترقَّبُ الأحد القادم؛ حتَّى أهبط السُّوق وألتقي صاحبي، وكان هذا هو السُّوق الأقربُ لبيتهم، ويلتقي فيه أصحاب الحاجات كما جرت العادة.

التقيتُ بصاحبي، وعرضتُ عليه طلبي مرةً أخرى، فاعتذر كما فعل أول مرة، وقال: "موعدنا الأحد القادم."

عدتُ أدراجي، وقدماي بالكاد تحملاني من وطأة الخيبة والحزن.

---

١٢ سبق التعريف بمفهوم (علوم الديرة والسيرة).

آلمني أن يكون هذا جزاء المعروف، وأن يتحوّل السعي لتفريج الكربات إلى عبءٍ ثقيلٍ في نظر من لا يقدّر.

عدتُ إلى والدي فأخبرتهُ الخبر، وما حصلَ مِنْ أمر الرَّجل الّذي أقرضتهُ دينًا وماطلَ في سداده، كما أنَّه لم يُقدّر المسافة الّتي أقطعها كُلَّ أحدٍ، ولا يزالُ يخلفُ وعده.

وفي الأُسبوع الثّالث هبطتُ إلى السُّوق على أملٍ في أنْ يعودَ مالي، فوجدتُ الرَّجلَ وفي جيبه مبلغًا كبيرًا من الفضّة، وكان الجيبُ في الصَّدر، وفتحتُه تكونُ من الشّق الذي يدخل الرأسُ منه، وهو جيبٌ كبيرٌ يكون في الثّوب المُفرَّج.[١٣]

فقلتُ له: الحمدُ لله فقد حصلَ السَّداد، وحصلت الزّيادة الّتي ستُعينُني على الزّواج.

فردَّ عليَّ بالطَّلاق ثلاثًا أنَّه لا يستطيعُ سدادي، وأنَّ ما في جيبه سوى ثلاثمائة ريالٍ قيمةُ ثورٍ باعه، وأنَّه لن يصْرفها إلّا في ثورٍ مثله؛ لحاجته الماسَّة إليه في الحَرث والسَّقي، فوجود الثَّور في المنزل يُعدُّ بمثابة الأجْهزة الضَّخمة، الّتي تساعدُ النَّاس في قضاء حوائجهم.

فبه تتمُّ الحِراثة، ودِياسة المحصُول، وسَقْي الحَرث، والذي يملكُ ثورًا كمَنْ يملكُ كنزًا عظيمًا، وكانَ يتعاونُ الجارُ معَ جاره الّذي يمْلكُ ثورًا آخر، فالحِراثة، والدّياسة، والسّقاية تحتاجُ إلى زوجٍ من الثّيران.

أمّا الّذي يملكُ زوجًا من الثّيران أو أكثر، فهذا من طبقة الأثرياء الّذين أنعم الله عليهم، ووسّع لهم في أرزاقهم.

عدتُ إلى والدي أُخبره بعلوم الدّيرة والسّيرة، وقصّيتُ عليه القَصص، فالرَّجل لم يُعِدْ لي حقّي، ولم يُقدّر معروفي.

---

[١٣] هو ثوب واسع من الأسفل، ذو أكمام طويلة تنتهي بذيلٍ يصل إلى منتصف الساق. وتُربط أطراف الأكمام من الخلف عند العمل، لتسهيل الحركة ومنع الإعاقة.

فقلتُ لوالدي: يبدو أنَّه مُماطِل، وأنا فكَّرتُ في حيلة، فقال لي: وما هيَ؟

فقلتُ: أجمعُ له خمسةً وعشرين رجلًا من الجماعة، من كُلّ قريةٍ خمسةٌ أشخاص، وقُرانا -كما تعْلم- خمسة، ثمَّ نتوجَّهُ إلى بيته، أو قريته، فلا نخرجُ إلَّا بسداد الدَّين، وتغريمه حقَّ ضيافتنا.

وكان النَّاس يفرحون بمثل هاته الدَّعوات، ويُرحّبُ بها أفرادُ الجماعة، ولا يتردَّدُ العُقلاء في تلبيتها، ويهونُ عليهم السَّير عشرين كيلو مترًا من أجْل وجبةٍ دسْمة، قد لا تحصلُ لهم في الشَّهر والشَّهرين.

شكرني والدي على حُسن تصرُّفي، فقد تمالكتُ غضبي مرَّةً ومرَّتين وثلاثة، ولم أبطش به في السُّوق، معَ أنَّ نفسي كانتْ تراودني بذلك، لكنَّني أعرفُ قوانين السُّوق جيّدًا، وهذه المعرفة هي الَّتي جعلتْ للسُّوق قيمةً عند الهابطين إليه.

بتُّ ذلك اللَّيل أترقَّب الفجر؛ لكي أنطلقَ إلى قُرى العُفُوص الخمس، وأجمع الرِّجال للدُّخول على صاحبي وجماعته.

إلَّا أنَّني أصبحتُ ولمْ أجد والدي، وكعادته كانَ يسرحُ بعد مُنتصف اللَّيل إلى مزارعَ لنا، ويعملُ فيها حتَّى تشرقَ الشَّمس، ثمَّ يعودُ للمنزل.

وليس من عادتي أن أخرجَ من البيت حتَّى يكون شاهدًا على فَعْلتي، معَ أنَّني سبقَ وأخبرتُه الخبرَ، وباركَ رأيي، فكنتُ أظنُّ أنَّه لن يسرحَ تلك اللَّيلة من أجْل مَهمَّتي.

فجلستُ أمامَ البيت أُراقب الطَّريق من الجبل، فإذا به عائدٌ وعصاهُ على كتفه، وبندقيَّتَهُ في جَنْبِه.

رحَّبتُ فيه، واستمعتُ إلى عُلومه كالعادة، فلا يكادُ يغيب عنّي ساعةً، أو أغيبَ عنه ساعةً، إلَّا ويُخبرُ كُلُّ واحدٍ منَّا الآخر بعلوم تلك السَّاعة.

جلسنا معًا، وبدا لي أنَّه قادمٌ من عملٍ شاقّ، فقال لي: ما عندي من العُلوم إلَّا سلامتك، قلتُ: اسْلَم، حيَّاك الله وحيَّا عُلومك.

فبدأ بتَقْدِمَة علْمه ثمَّ قال: أخبرتني البارحة بما حصلَ مع صاحبك فلم يأتني النَّوم، ولم ترُقْ لي فكرة وفْد القبائل؛ لاسيَّما وأنَّ صاحبك تربطنا به صلةُ رحم، فقلتُ: سأذهبُ إليه بمُفْردي، وآخذُ حقَّك منه بطريقتي.

فبعد صلاة العِشاء، وبعد أنْ أخْلدتُم إلى النَّوم، توجَّهتُ إلى قريته -تبعدُ خمسةً وعشرين كيلو مترًا- فاستقبلني مطرٌ غزيرٌ بلَّل ملابسي، فما استطعتُ الوصولَ إليه إلَّا بعد مُنتصف اللَّيل، فطرقتُ بابه، وردَّ قائلًا: مَنِ الطَّارق؟ فقلتُ: صديق، فعرف صوتي وقال: العم أحمد!

فتحَ الباب ورأى ثوبي مُبلَّلًا من أثر المطر، فقال: ما الَّذي جاء بك في هذه الحزَّة من اللَّيل؟ فقلتُ: "قباحتك" سببٌ مجيئي.

أحضرَ لي ثوبًا بديلًا، وجُبَّةً أتدفَّأ بها، وأشعلَ النَّار، وقرَّب القهوة ليسمعَ عِلْمي.

فقلتُ له: ولدي (عيسى) هبطَ السُّوق ثلاث مرَّات لتُعيد له ماله الَّذي أكرمكَ به، وقضيْتَ به حاجتك، ونفَّسَ به كُربتك، وأنتَ تُماطُل في ذلك، وفي الثَّالثة طلَّقْتَ ثلاثًا على ألَّا يأخذَ ريالًا واحدًا، فكيف لو طلَّق (عيسى) مثلك؟ ومدَّ أحدكم يدهُ على الآخر، واستعديتم أهل السُّوق، فكبُرت المُشكلة، وتغرَّمتم بأضعاف ذلك المبلغ؟ لولا أنَّ (عيسى) أحسنَ التَّصرف، وتركَكَ وشأنكَ، وعاد أدراجه، وإلَّا لوقعت بينكما واقعة!

وكيف تُطلَقون وأنتمُ العُزّاب؟! أمَا وإنّي قدْ جِئتُ إليكَ فأنا مِنْ يُطلّق ثلاثًا، ولنْ أخرجَ مِنْ عنْدكَ إلّا بسدادِ دينه، أوْ يُخرجني قومُك - ولو بلغهم الخبر لسدّدوا عنه، وحلّت به الفضيحة-، وكان لجدّي (أحْمد) مكانةٌ كبيرةٌ عندهم.

فقالَ لي: أبْشِر بالسّداد وما يسُرُّك، فاضطجعتُ قليلًا قبل الفجر، وبعد أن صليّنا أحضرَ وجبة الإفطار، وأعْطاني تسعةَ عشرَ ريالًا، واعتذرَ عن ريالٍ واحدٍ بحُجّة أنّه لا يمْلكهُ الآن، وهكذا المُماطل واللّئيم يشقُّ عليه أنْ يُعيدَ حقّك كاملًا.

فقال: اسمحني يا عم (أحمد) في هذا الرّيال، فوالله لا أجدهُ الآن، فقلتُ له: هذا الرّيال لِي وليس لعيسى، واعتبرهُ مُقابلَ سعيي ووساطتي بينكم، وأنا أُسامحك فيه.

فاللّئيمُ إذا أكرمتَهُ لا يستطيعُ الوفاءَ بما عليه، وإنْ أعادهُ فيكونُ منْقوصًا.

فاخرجَ لي والدي المبلغَ من الفضّة، وحمدتُ الله على ذلك، وعلمتُ أن رأيهُ كان سديدًا، ففي مثْل هاته المواقفَ نحتاجُ لرجلٍ رشيْدٍ تكونُ لكلمته هيبْة، يفكّرُ في المُشكلة وهو جزءٌ من حلّها لا جزءٌ منها.

فوائدٌ تربويَّة:

١- الكريمُ الَّذي يعلمُ بأنَّ الرزقَ بيد الله، لا يبخلُ بشيءٍ على مُحتاج: فيُفرّجُ كُربةً، ويُقْرضُ مالًا، ويسْعى بجاه، وهذا لا يكونُ إلّا بتوفيقٍ من الله.

٢- اللَّئيمُ يأتيكَ عند حاجته بصورةِ مَلَاك، وبروحِ مُحِبّ، وعند السَّداد ترى ثعلبًا ماكرًا، أوْ إنْسانًا حاقدًا، فلا تخرجْ منه بشيءٍ، بلْ ويلُومُكَ لأنَّك تُطالبُ بحقّك.

٣- إذا أردت أنْ تُقرضَ شخصًا فليكُن القرضُ لله والسَّداد من عنده، وإنْ كنتَ تريدُ سدادًا منهُ فأعطه على قدر قيمته عندك، ولا تُكلّف نفسكَ فوق طاقتها؛ فإن كانتْ قيمتُه عندك ألفًا فأعطه ألفًا ولا تطلبه، فإن أعاده تحقَّق هدفكما، وإنْ هو ماطلَ ولم يُعده فبغْهُ بهذا الألف واشترِ راحة بالك، وإنْ كانتْ قيمتُه عندك صفرًا فاعتذر منهُ، أمَّا إذا كانتْ قيمتُه عنْدكَ كروحك فأعطه ما استطعْتَ، واقْطع رجاءكَ مِنْ عودة حقّك؛ لنَّهُ أهلٌ لذلك.

٤- اللَّئيمُ يُحسن الطَّلبَ ولا يُحسنُ السَّداد.

٥- مِنْ حُسنِ التَّربية أن يكونَ الأبُ وابنه كالصَّديقين، يُطْلعُ كُلُّ واحدٍ منهما الآخر على أسْراره، ويستشيرهُ في خُطواته.

٦- يتحلّى كبيرُ السّن بخبرته، وحكْمته، وحُسْن تصرُّفه، ويستطيعُ أنْ يُقارعَ الشَّباب لعُلوّ همَّته.

موتُ شقيقي أحْمَد

يكْبُرني أخي أحمد -رفع الله درجته في عليين، وجعلهُ فرطًا لوالديّ إلى الجنَّة- بأربعِ سنواتٍ تقريبًا، كان ذكيًّا، فَطِنًا، يُحُبُّ النَّاس، ويتحلَّى بذكاءٍ عاطفيّ -حسْبَما يصفُه أبي وأُمّي-، وكانَ مِنْ لِدَاته من أبناء الملك (سُعُود)، يُحبُّ اللَّعب معه، ويُصاحبه في يومه.

ظنَّ والديَّ أنَّ أحدًا من الأقارب أُعْجب بفرط ذكائه الاجتماعي والعاطفي فلم يذكرُ الله عليه، فأصابتهُ وعكةٌ صحيَّةٌ أردتهُ صريعًا، فلا يستطيعُ الحِراكَ معها.

تقولُ والدتي: كان أحمد يستقبلُ عمَّ والدي -جَدي (علي) رحمه الله- فيُرحِّب به، ويَخْدَمه لدرجةِ أنَّهُ كان يساعدهُ في قضاءِ حاجته، وكأنَّهُ راشدٌ مُدْركٌ للبرّ مُنْذُ طفولته.

وكان في الحويَّة أهلُ بيتٍ يعالجون بالكيّ والأعْشاب، فذهب به والديَّ -رحمهما الله- ودخلت به أُمّي عند النّساء، ووالدي يسمعُ صوتَ بُكائه من الخارج، فقد كانَ أحمد لماحًا يستوعبُ مَا يدورُ حولَه.

كانَ يصرخُ بصوتٍ عالٍ لا أُريدهُ لا أُريده، يقصدُ بذلكَ العلاج، ولكنَّهم أجْبَروهُ على شُرْبه، كعادة أهل البادية في إسقاء الطّفل بعضًا مِنْ السَّوائل -السَّعوط-، حتَّى انقطع صوتُه، فعلتْ أصْواتُ النّساء بالصُّراخ.

فشعرَ والدي بأنَّ هناكَ كارثةٌ حلَّت؛ لقدْ شَرِقَ أحمدُ بالسَّعوط وفاضتْ رُوحه.

انتشرَ الخبرُ وعلمَ به طبيب الملك (سُعود)، فاستدعى والدي وأخْبرهُ بتفاصيل ما حدث، فأمرَ باستدعائهم لمُعاقبتهم، لكنَّ والدي امتنعَ قائلًا: بحثْنَا عن العافية عندهم فلم يُردها الله، وكان صابرًا مُحتسبًا، ولقدْ أدركتُ الآن وقْع ذلك عليه، فهُوَ بِكْرُه وماءُ عينه، بلغ

معه السَّعي، ورأى منهُ ذكاءً وفِطْنة، وتفرَّسَ فيه مُستقبلًا باهرًا، ولكنَّ خِيْرةَ الله هي الأبْقى.

يقول والدي: أخذتُه على ذراعي، وضممتُه ضمّة الوداع، فرأيتُ على شِدقه أثرَ الدواء.

ذُقته بطرف إصبعي، فكدتُ أختنق من شدّة مرارته؛ ولو أُعطي لجملٍ، لأرداه قتيلًا.

فسألتُ عن مُركّباته، فقيلَ لي: خليطٌ من سبعة أنواع: "مُرّة، وحلتيته، وكَمُون، وشبّه، وغيرها من الأخْلاط لا أذكرها"، ووصفَ لي لونُه فقالَ: كانَ أسودَ اللّون كالقَار، ورائحتهُ نفّاثةٌ وقاتلةٌ تكتمُ الأنفاس.

لم يخبرني والدي -رحمه الله- عن مقْدار حُزْنه وصَبْره، ولا عن حُزْن أُمّي وصبرها، أو حتّى عنْ جَزَعِها، ولكنْ لا شكَّ أنّه كان يملأُ البيتَ عليهم سعادةً وأُنْسًا، لا سيّما وهُوَ يتحلّى بصفاتٍ يرجُوها كُلُّ أبٍ في ابنه، فكانَ والدي حريصًا على تعليمه المَراجلَ مِنْ ترحيبٍ بالضُّيوف، وخدمةِ كبار السّن، وكأنّهُ راشدٌ مُكلّف، وهو في ذلكَ لم يبلغ السّادسة من عُمُره.

ولكنّي أتفهّمُ صبرَ أبي، ورباطةَ جأشه، وكَتْمِ غيْظه، والإيمانُ بقضَاء الله وقَدَره، وعدم استجابته لطلب الطّبيب في مُحاكمة المُعَالِج، واكتفى بقوله الّذي أحْفظُه عنه: "أتينا نطلبُ العَافية عند هؤلاء، فاختار الله استعادةَ أمانته".

فعوّضهُ الله -عزّ وجل- بذريةٍ وأحفادٍ رأى بعضُهم بعضًا، وجاء مِنْ عَقِبه أبناءُ أحفاد، جعلهم الله في موازين حسناته، وجعلهم من العمل الصّالح المُمْتدّ بعْد موْته.

فوائدٌ تربويّة:

١- لله حكمةٌ بالغةٌ فيمَ يُعطي ويمنع، فلهُ ما أخذَ ولهُ ما أعطى، وكُلُّ شيءٍ عندهُ بمقْدار، فما أحسنَ التَّسليم لحُكْم الله.

٢- العينُ حقّ، والتَّحصينُ واجبُ الأبوين، ولا يحدثُ مكرُوهًا إلَّا بإذن الله، وبحكْمته البالغة.

٣- التَّسليمُ بالقضاء فضلٌ من الله ومِنَّة، ويُستعانُ عليه بالإيمان التَّام بقضاء الله وقَدَرِه، خَيْره وشَرّه، وعلى المُؤمن أنْ يتوقَّع كلَّ شيءٍ؛ حتَّى لا يتعرَّض لصدمةٍ لا يجدُ معَها صبْرًا.

٤- الرِّضا بقدر الله وحِكْمته يعقُبه العِوَض الجميل مِنَ الله -عزَّ وجلَّ-.

أمي وفيشُ الكَهْربَاء

تقولُ والدتي -رحمها الله-: حينما كنتَ طفلًا تتنقَّل بين زوايا البيت، كان والدُكَ يخشى عليك من أفياش الكَهْرباء؛ لقُربها مِنْ تناول يدك.

وكانت الكَهرباء تأتي مِنْ مُولِّدٍ خاصّ بالقصر، ولا تعملُ إلَّا في ساعاتٍ من النَّهار، فطلبَ مِنّي أبوكَ أنْ أُغْلقَ فَتَحات الأفْياش بقطعة قماشٍ؛ حتَّى لا تُدخِل إصْبَعكَ فيها.

واستدْركتْ قائلةً: فأنَا لا أُدْركُ خُطورةَ الكَهْرباء، وكنتُ أنسى وأُسوّفُ طلبَ أبيك، بلْ لا أهتمُّ بذلك إطْلاقًا، ولا أجدُ مُبرّرًا لحِرصه وغضبه عليَّ إذا نسيتُ.

فلَّما وجدَني كذلكَ، طلبَ مِنّي إحضار مِسْمَار حديد، وكان ينظرُ إلى مصباحٍ في سقف الغُرفة؛ ليُوهمَني بحدوث أمْرٍ ما، فطلبَ مِنّي أنْ أضعَ المِسْمَار في فتْحة الفِيْش، وظلَّ ينظرُ في السَّقف، فظننتُ أنَّ طلَبهُ يتعلَّقُ بضوء المِصْباح.

أخذتُ المِسْمَار فوضعته بقُوَّة وإخلاصٍ داخلَ الفِيْش، وبينما كنتُ أنتظرُ أنْ يزدادَ ضوءُ المِصْباح، فإذا بالدُّنيا -كُلّها- أظْلمتْ في عينيّ، وكانَ الحدثُ في وضْح النَّهار.

لا أعلم بالضبط ما الذي حدث، لكنّي فقدتُ البصر لثوانٍ معدودة.

سَرى في جسدي إحساسٌ غريب، لا أستطيع تفسيره، ثم انهالت عليّ قوةٌ غامضة، لم أعرف مصدرها، حملتني من مكاني وقذفت بي إلى طرف الغرفة.

فكنتُ في ذهولٍ ممَّا حصل، وكُلُّ شيءٍ صارَ بلمْح البصر، كُلُّ هذا والمِسْمَارُ لم يصل بَعْد لعُمق الفيش، وأنا لا أعلمُ سرَّ ارتطامي بالجدار

المقابل، فقدتُ توازُني، وشعرْتُ بالتماسٍ يسري في جسدي، لا أعْلمُ لهُ تفسيرًا، ولا أجدُ له وصفًا.

والتفتُ في أبيك فإذا به يضْحك، هَالَني موْقفهُ، وبدأ يُفسّر لي ما حدث، ثمَّ قالَ: ماذا لو أنَّ عليًا أدخلَ إصْبعهُ في الفِيْش، أوْ وضعَ مسْمارًا فيه؟ لا بُدَّ أنَّه سيُصيبهُ مثلَ ما أصابَك، ورُبَّما قدْ يموت!

ثمَّ استرسلَ في حديثه، وأخْبرني بأنَّ الكهرباء حينما تصْعقُ الإنسانَ فإنَّها تسْري في جسده، حينها لمْ أتأخَّر ولوْ لثانيةٍ واحدةٍ، ولم أناقشْه، وما اعترضْتُ على صنيعه، بلْ فهمتُ الدَّرسَ جيّدًا، وهرعْتُ لسدّ الفِيْش بمَا يُناسبه، وجسدي لا زالَ يرْجِف، وجلدي مُقْشَعرّ، وأشعرُ بدبيبٍ يسْري في جسدي كدبيب النَّمل، كُلُّ هذا المشْهد وأنَا أتخيَّلُك مكاني!

فكانَ هذا الدَّرسُ أعْمقَ درسٍ عمليّ تعلّمتهُ في حياتي عن خُطوْرة الكهرُباء، ولا سيَّما على الأطْفال -حماهُم الله-.

فوائدٌ تربويَّة:

١- جهلُ الإنسان بقيمة الشَّيء، أوْ خُطورته، أوْ أهميّته، يجعله مُسوّفًا، ولا يتحمّسُ لفعل ما يُطْلبُ منه.

٢- لا تنتظرْ من أحدٍ تنفيذَ طلباتك، أوْ تحقيق أهدافك، ما لم يكنْ لهُ التَّصوُّر الذي عندك، أو الشُّعور بالأهميَّة الَّتي تشعرُ بها.

٣- تحتاجُ لإقناع أحدٍ بصواب رأْيك بأنْ تمنحَهُ حقَّه في التَّجربة، وإنْ كانت على سبيل ألَمِه.

النَّومُ والفَحْمُ مُشْتعل

في الحويّة، وتحديدًا في الفيلّا الّتي هيَ مَسْقَطُ رأسي، كان والدي ووَالدتي يقْضيان ليالي الشّتاء داخلها؛ فرارًا من البرد، وأمَّا في فصْل الصَّيف فكانت الخيمة المُجاورة لها مسكنًا لهم.

وكانتْ تأتي عليهم ليالَ فيها من البرد القارس ما فيها!، وكانَ جوُّها صحْراويّ، وبردُها يختلفُ عن برد الجبال والأودية، فلا بُدَّ مِنْ تدْفئةٍ مُضَاعفة.

كانَا يُشعلان الحطبَ حتَّى يصيرَ جمرًا يُسْتَدفأ به، ثمَّ يخرجانه خارج الفيّلا لخطورته.

يقولُ والدي: في إحدى ليالي الشّتاء، قلتُ لأُمّكَ: قبل أنْ تنامي أخرجي الموْقدَ خارج الدَّار، فقالتْ لي: أَبْشِر.

يقول: فأخذني النَّوم، ورحتُ في سُباتٍ عميق، وفِقْتُ من نومي وأنا أشعرُ بالاخْتناق، وأنَّ فوقَ جسَدي مِنَ الأثْقال ما هُو كالجبال أوْ أشدّ، وكأنّي أتنفَّسُ من ثُقْبِ إبْرَة، فقلتُ في نفسي: أهذا كابوس؟ أمْ جَاثُوم؟ أمْ شيءٌ آخر؟

فتذكَّرتُ موْقِدَ الفَحْم، وعرفتُ أنَّ ما أصابني بسببه، وأنَّ أُمَّكَ غلبها النَّوم فنسيَتْهُ، فقاومتُ ألَمي، واستجمعتُ قُوَايَ متَّجهًا صوْبَ الباب، فمَا وصلْتُه إلَّا زحفًا، فلمْ أقْوَ على الوقوف، وكأنّي قطعتُ مسيرةَ أيَّامٍ مِنَ الرَّكْض المُتواصِل حتَّى وصلتُه!

فتحتُ البابَ وأخرجتُ أنْفي لأتنفَّس، لعلّي بذلك أستعيدُ نشَاطِي، وبعد بُرْهةٍ شعرتُ بنشاطٍ يدبُّ في جسَدِي، ويجعلُني أقِفُ على قَدمِي.

فتحتُ الباب على مِصْراعيه، وفتحتُ النَّوافذ، وأخرجتُ المَوْقد -المَنْقَلْ- خارجَ الدَّار.

أمَّا أُمُّكَ فكانتْ بينَ الحياة والموت، جثةً هامدةً إلَّا أنَّها تتنفَّس، سحبتُها بقدميها حتَّى أخرجتها في عَرْصَة الدَّار، ونضحتُ عليها الماءَ حتَّى أفاقتْ، وكانتْ دونَما وعْيٍ ولا إدْراك.

انتظرتُ عليها قليلًا، وبعْدَ أنْ أفاقتْ قلتُ لها مُوبّخًا: ألمْ أُنبّهك إلى خُطوْرة بقاء المَنْقَلْ في الدَّار وقتَ النَّوم؟

فقالتْ: غلبني النَّوم، ولا أدري كيفَ غفوْت؟!

فأنا أُدْرِكُ خطورةَ ترك الفَحْم في مكانٍ مُغلق، وأعرفُ حوادثَ وضحايَا له، لكنَّ أُمَّكَ لا تُدْرك هذا، فيظُنُّ الواحدُ فينا إذا حذَّر إنْسانًا من خطرٍ فإنَّه يدركُ حجم الخطر كما يدركُه.

ثمَّ ختمَ بقوله: وبعْدَ هذا الموْقف، كانتْ أُمُّكَ أحرصُ منِّي على إخراجه، وكنتُ لا أعتمدُ عليها في ذلكَ، بلْ لا بُدَّ أنْ أتأكَّد بنفسي مِنْ إخراجه خارجَ الفيلّا.

فقلتُ أنا: وهذا الموقف مِنْ أبي -رحمه الله- يتجسَّدُ فيه معنى تفويضُ العمل، وعدمُ تفويض المسْؤوليَّة؛ لأنَّها بالمَقام الأوَّل تقعُ على عاتق الرَّجُل.

فوائدٌ تربويَّة:

١- أهمية الوعي بالمخاطر والسلامة المنزلية.
٢- المسؤولية الشخصية وتفويض العمل مع عدم تفويض المسؤولية.
٣- قيمة التضحية والعناية بالآخرين.
٤- قيمة الأسرة ومتانتها في مواجهة المصاعب.

مَقْهى عِيْسَى وسَعِيْد

بعد سنواتٍ عِدَّة، انتقلَ والدي من العمل في الحِمَالة والعمل الحُرّ، إلى العمل في الخاصَّة المَلكيّة لسنواتٍ أُخَر، بعْدَها رَغِبَ في تغيير مكانه، فقرَّر الانتقال إلى وزارة المَعارف -ذلك الوقت- وكان الملكُ (فهد) -رحمه الله- أوَّلُ وزيرٍ لها[١٤].

وفي جلسةٍ خاصَّة معه، كان الملك (فهد) -رحمه الله- يطرحُ أسئلةً على والدي حول منطقة الجنوب، وتحديدًا عَنِ الباحة، وعنْ (زَهْرَان) على وجه الخُصوص.

وكانتْ فُرصةً مُزدوجةً لكلا الطَّرفين، أمَّا عَنِ الملك (فهد) فكانتْ تتمثَّلُ في رغبتهُ بمعرفة الواقع والبيئة، وأوضاع المناطق، وأمَّا عَنْ والدي -رحْمة الله عليه- فكانتْ فُرْصةً ثمينةً لإعطاء الملك (فهد) خلفيَّةً صادقةً عن المنْطقة، ورجالها، واحتياجاتها في شتَّى المجالات.

في هذه الجِلْسَة الوُدودة، طرحَ والدي رغبتهُ في الانتقال إلى العمل في وزارة المَعارف، فرحَّبَ وزيرُها بطلبه مُباشرةً، وأمرَ باتّخاذ اللّازم حِيَاله، وبدأت مع والدي الرّحلةُ لعوالمَ جديْدة.

سافرَ والدي إلى الرّياض لإتمام إجراءات الوظيفة، ولمْ يكن لديْه مجالٌ سوى سُلَّمِ المُسْتَخْدَمين، ويتألّفُ مِنْ ثلاثِ درجات، وكان راتبهُ الشَّهريّ بضعةَ عشرَ ريالًا فقط.

كان يظُنُّ أنَّ الأمرَ سيتمُّ بسهولة، فبمجرَّد أنْ يدْخلَ الوِزَارة من بابٍ، فإنَّه سيخرجُ من الآخر بالوظيفة والرَّاتب معًا، ولكنَّ هُناكَ إجراءاتٌ روتينيَّة لا بُدَّ من مرور المُعاملة عليها، منها: توفُّر الأرقام

١٤ تأسّست وزارة المعارف عام ١٣٧٣هـ، وعُيّن الملك فهد -رحمه الله- أوّلَ وزيرٍ لها.

الوظيفيَّة، وابتداءُ عامٍ ماليٍّ جديْد، والكثيرُ من المُصْطلحَات الَّتي لا يعرفها أبي، ولا يستوعبُ مُبرّرَها.

فكان الخَيارُ المُتاح أمَامه أنْ يبدأ بالعمل الحُرّ بالرّياض حتَّى يحينَ موعِدهُ بالوَظِيْفة، فجلسَ ستَّة أشهرٍ على ذلك الحال، اشتغلَ فيها معَ رَجِيْمه شريكًا في مقهى، كُتب عليه لوحةٌ تحمل الاسْمَيْن معًا "مقْهَى عيسى وسعيد الزَّهراني".

وكان من بين العَامِلين المُؤثّرين رجلٌ غامدّيٌ مُخْلص، يُبْدعُ في عمل الفُول والشَّاي، ففي مُنتصف اللّيل يقومُ بتجهيز جرّة الفُول؛ لأنَّ الطّلب عليها يكونُ مُكثّفًا بعد صلاة الفجر مُباشرةً، كمَا يقومُ بغلي ماء الشَّاي من قبل الفجر أيْضًا، ويُجهّزُ الأباريقَ بورق الشَّاي والسُّكر، كُلُّ هذا باحترافيَّةٍ وإخلاص يتناغمُ معَ ذلك الجيل.

وكان دورُ الوالد وعمّي سعيد مجرَّدَ الإشراف وتحصيل الوارد من المال، فبُرّادُ الشَّاي بحدود خمسِ هللاتٍ، وطبقُ الفُول مثلَه.

وكان الإشرافُ وتحصيلُ الدَّخل يتمُّ بالتّناوبُ بينهما، فيقومُ الواحدُ منهم بالإشراف يومًا، ويرتاحُ في اليوم التَّالي، وهكذا دَواليك.

لاحظ والدي أنَّ القهوجيَّ الغامديّ كان يأخذُ مبْلغًا على أباريق الشَّاي الّتي تصلُ إليه، وكُلُّها تأتيه من الدَّكاكين والمحلَّات المُجاورة، وغالبًا لا تتجاوزُ الرّيالين يوميًّا، بينمَا أجْرُه اليوميّ ريالين أيضًا، ولم يمنعهُ والدي عن ذلك؛ لأنَّه يبذلُ كلَّ ما في وِسْعه وطاقته، والمقهى قائمٌ بأمر الله، ثُمَّ بهمَّته.

وشاع عند النَّاس اسمه، فالنَّاس تقول: نذهبُ إلى مقهى الغامديّ، ونلتقي في مقهى الغامديّ، والعنوان بجوار مقهى الغامديّ، بينما اللّوحة عليها اسم الشَّريكين (عيسى وسعيد)، لكنَّ النَّجاح،

والإبداع، والإخلاص في العمل، يَفْرِضُ نفسه، فبارك الله لهُ على إخلاصِه وجُهْدِه.

ولاحظَ عمّي سعيد ما لاحظهُ والدي على القهْوجيّ، ولكنَّ عمّي كان دقيقًا في الحساب فلا يفوتُه شيءٌ من تلك القُروش -القَرْش يُساوي خمس هللات- الّتي تصلُ إلى يد الغامديّ.

فإذا جاءتْ نَوْبةُ أبي أتاهُ القهوجيُّ شاكيًا، وفي أثناء شِكايته يقول: ابحثوا لكم غدًا عن شخصٍ آخرَ يقومُ مقامي، وهذا من أدبه وشيمته؛ فلا يُريدُ أنْ يترك المكان فارغًا دونَ علمهم، وهذا الفعلُ عزيزٌ لديهم؛ فالالتزامُ بالعُقود والمواثيق أمْرٌ مُقدّسٌ عندهم، فلا يوجدُ عقدٌ مكتوبٌ بين الطّرفين، ولكن جرى العُرْفُ على احترامه وتقديْره، فالكلمةُ الّتي تنْطقُ بها ألسنتهم، والاتّفاق الّذي يتمُّ بين الشُّركاء مُشافهةً لهوَ أقوى من العقد المكتوب، والّذي عليه شهود، وهذا مِنْ أمانة الكلمة عندهم.

أدركَ والدي سببُ اعتذار القهْوجيّ عن العمل، ولكن سألهُ ليتحقَّق من ذلك فقال: ولِمَ تعتذرُ عن العمل؟

فقال: أنَا أعلمُ أنَّك تُلاحظُ عليَّ ما أفعلُه، فتراني أقتصرُ على ما يصلُني من الدَّكاكين ثمنًا لأباريق الشَّاي، وهيَ تصلُ إلى ريالٍ، وقد تزيدُ أوْ تنقص، وأُجْرَتي -مِنْكُم- لا تكفيني في مصَاريفيَ اليوميَّة، فلستُ مُضْطرًا للعمل معكم بأجرةٍ لا تسدُّ حاجتي، وخلفي أسرةٌ في القرية ينتظرون مِنّي ما يُقيمُ صُلبهم، وشريكُكَ يُدقّق على كل بُرّاد يصلني.

ففي يومك أجمعُ ما يكفيني من المصاريف اليوميَّة، وأدَّخرُ راتبي لأهلي، أمَّا إذا كانتْ النَوْبةُ لشريكك فأنَا لا أحصلُ على هللةٍ واحدة.

فطيَّب والدي خاطرَهُ قائلًا: لا عليك، كُلُّ مبلغٍ يأتيكَ في نَوْبتي فهُو لك، أمَّا اليوم الّذي لا أكونُ فيه، فأبْشر بالعِوَض مِنّي.

اطمأنَّ القَهْوجيّ بَعْدما بثَّ شكواهُ لأبي، ولا زالَ يعملُ بتفانٍ وإخلاصٍ كما كانَ عليه مِنْ قَبْل، وهذا بفضل الله أولًا، ثُمَّ بحكمة والدي وفِطْنته، وشُعُوره بالأجير ومعاناته، فأيّامُ الشَّقاء يعرفُها جيّدًا وتعْرفُه.

أمَّا عمّي سعيد فقد كان يظنُّ أنَّه بحزْمه وحِرْصه يستطعُ أنْ يُروّضَ القَهْوجيّ، وهذا الفعلُ لا يصحُّ مع بني البَشَر.

استمرَّ الحالُ لبضعةِ أشهرٍ حتَّى توفَّرت الوَظيْفُة لأبي، حينها أعلنَ سَفَرَهُ إلى الطَّائف مُغادرًا الرّياض؛ لأنَّ توجيهَهُ كانَ بتعليم الطَّائف.

وهنَا تأتي عملية فضّ الشَّراكة بينهما، فكانَ والدي يريدُ أن يخرجَ منها بحقّه كاملًا، بينمَا شريكُه كانَ يُثْقلُه الأمْر.

فخيَّر والدي بين أمْرينِ كلاهُما مُرٌّ: البقاءُ في الشَّراكة وتَرْكُ الوظيفة، أوْ البقاءُ في الشَّراكة حتَّى وإنْ سافرَ وابْتَعد، ولكنَّ والدي كان حكيْمًا، فعلمَ أنَّ الشَّراكة لنْ تنْجحَ في غيابه.

ولمْ يقبل أبي مِنْ شريكه التَّعويضَ فكانتْ لهُ حِيْلة؛ فخيَّرهُ بين أمرين كلاهما مُرٌّ: إمَّا أنْ يَعْرِض المَقْهى للبيع بمبلغ كذا وكذا، وإلَّا فهناكَ شخصٌ حاضرٌ للشّراء بهذا المبْلغ!

فقال شريكهُ: ومَنْ يكونُ عساه؟!

فقال والدي: لا يهمُّك من يكون، ولكنَّه جاهزٌ للشّراء، والقرارُ بيدك.

فقال: لعلَّكَ تقصدُ فُلانًا؟

وكان (فُلان) هذا كلَّما دخلَ المَقْهى أبدى إعجابه بالعمل والدَّخل، وكانَ عمّي سعيد يغارُ منه.

لمْ يُفْصِح والدي عن الشَّريك، وفي الحَقِيْقة لم يكنْ هناكَ شريك، ولكنَّها حيْلةٌ دبَّرها والدي ليأخذَ حقَّه وافيًا، فتحقَّق له المُرادُ بفضل

الله، وإنْ كانَ بعضُه إلى أجلٍ مُسمًّى، لكنَّ المُهمّ عودةُ الحقّ لأصحابه وإنْ رَغِمَتْ أُنوف!

فوائدٌ تربويّة:

١- تنجحُ الشَّراكة عندما يتَّقي الله الشُّركاء، ويراقبونه في سرّهم وعلنهم.
٢- قدْ يكونُ سِرُّ نجاح عملك (الأجيرُ) الّذي يعملُ تحتك، فلا تبْخسهُ حقَّه.
٣- من الحِكْمة الاتّزانُ في الأُمور، ومراعاةُ الظُّروف، ونِسْبةُ الجُهود لأصحابها، والاعترافُ بفضْلهم، فهي المكْسبُ الرّابح، وليس الحرصُ على جمع المال وادّخاره؛ فالمالُ فاني، وحسنُ الخلق باقٍ.

الاعتداءُ على ميزاب البيت

يقولُ والدي -رحمه الله-: بعد أن رزقني الله، جمعتُ مالًا يكفي لبناء بيتٍ أفْضلُ من بيتنا القديم، فكان ضيّقًا تبلغُ مساحته مترين في خمسة أمتار، ويَسْكنُه مالا يقلُّ عن خمسةِ أشْخَاص، يجدون فيه الدّفءَ، والأُنسَ، والمودَّة، ويرون فيه مُتسعًا لبعض دوابّهم: كبقرةٍ حلُوب، أوْ أتانٍ يحملُ متاعهم، تكونُ في طرفٍ منه، وقد يجتمعان معًا.

يقولُ: قرَّرتُ أنْ أبنيَ دارًا مُجاورة، أبعادُها ما بين ثمانية في تسْعة أمتارٍ بجدارين فقط، أمَّا الجدارين الآخرين فهما جدارُ بيتنا القديم مع ساحته، وجدارُ جارنا.

وهكذا كانُوا، فيكتفي الواحدُ منهم ببناء جدارٍ واحدٍ بين ثلاثة بُيوتٍ؛ ليصبحَ لديه بيتٌ يُؤويه، بل القرية كلّها تفْعلُ ذلك، فكُلُّ واحدٍ منهم يستفيدُ من جدار جاره، وهذا ما جاءت به الشَّريعة السَّمْحة[١٥].

يقولُ: وعندما فرغتُ من البناء، كان عرضُ الجِدار لا يقلُّ عن المتر من الحَصَى، فكانَ الجدارُ عبارةٌ عن صفّين من الحجارة، والحجارة الّتي تكونُ في الخَارج لا تتّصلُ بالّتي في الدَّاخل، وبينهما يوضعُ الطّين، فلذا كانَ الجدارُ يقومُ بمهمّة العزل التّام، والّذي بِدوْره يجعلُ حرارة البيت من الدَّاخل ثابتةً في الصّيف وفي الشّتاء على السَّواء.

أمَّا السَّقفُ فهو عبارة عن طينٍ يصْنعهُ أهلُ القرية، وتُسمَّى هذه العملية (الطّينَة)، يشاركُ فيها الرّجال والنّساء من أهل القرية على السَّواء؛ فالنساءُ يحْملنَ الماءَ -في القِرَب- من البئر، حيثُ يوجدُ عليه مجموعةٌ منهنَّ ينزعن الماء بالدَّلو، ويسْكُبنه في القِرَب، فيتناولن البقيّة منهُنَّ القِرَب ليُسلّمنها لمَنْ بعدهن، حتَّى تصلُ إلى الرّجال، فيصبُّون

---

١٥ عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنَّ رسول الله -ﷺ- قال: "لا يمنعنَّ جارٌ جاره أن يغرزَ خشبةً في جداره"، أخرجه البُخاري (٢٤٦٣).

الماء على التُّربة لتصبحَ طينًا لزجًا يمنعُ وصولَ الماء إلى داخل الدَّار، وذلكَ بَعْد أنْ ينتهيَ النَّجارُ من وَضْع السَّقف، ويكونُ مصْنوعًا مِنَ الخشب المأخوذ مِنْ جُذوع الشَّجر، والذي يُغطَّى فيمَا بَعْدُ بألواحٍ من الخشب، تُنقشُ وتُدهنُ بنقوشٍ وألوانٍ عُرفت بها المنطقة.

وبعد الفراغ من سطح المنزل، يأتي دورُ وضع المِيْزاب لتصريف مياه الأمْطار، والميزابُ: عبارة عن جذع شجرةٍ على شكلٍ أُسطواني؛ يُسهّل نزولَ الماء إلى ساحة الدَّار.

يقول والدي: مضتْ أيَّامُ على الانتهاء من العمل، بمشاركة كبار أفراد الجماعة وعُقلائهم.

وغبتُ يومًا عن البيت، فلمَّا عدتُ قالتْ لي والدتك: أدْرِكْ أبوك -جَدّي- فإنَّ فُلانًا أتى وخلعَ المِيْزاب، وأبوك خرجَ للتَّوّ إليه.

يقول: فعرفتُ أنَّ أبي خرجَ غاضبًا، وليس أمَامُهُ إلَّا خِيَارًا واحدًا، وهُوَ أنْ يقودَ فُلانًا ليُعيدَ المِيْزابَ مكانَه، وكان جَدّي قاسيًا شُجاعًا لا يقبلُ التَّفاوض وَالخَطأ، فلا يعتدي على أحدٍ، ولا يُخطئُ في حقّ أحدٍ على الإطْلاق.

فأدركتُ حجم المُشكلة، وعرفتُ ما معنى أنْ يغْضبَ والدي، فأدركتُه أمامَ بيتِ فُلانٍ -نازعُ المِيْزاب- يُهدّدُه طالبًا منه الخروجَ إليه، وهُوَ مُمتنعٌ بإصْرارٍ لأنَّه يعرفُ نتيجةَ خروجه جيّدًا.

هدَّأتُ مِنْ روْع والدي وقلتُ مُخافتًا له: هذا الفعلُ لم يصْدر عنه، وإنَّما كانَ بتحريضٍ مِنْ شياطين الإنْس يريدون به الفتنة، وقلتُ بصوتٍ عالٍ -يسمعُه نازعُ المِيْزاب-: إنَّ عمّي فلانًا -نازعُ المِيْزاب- لهُ أنْ يضعَ المِيْزابُ حيثُ شاء، ولا إشكالَ في ذلك.

فَهِمَ جَدُّك مقصودي فتراجَع، وعُدنا إلى البيت وقدْ هدأتْ نفسُه، وذهبَ غيْظُه.

وأنَا أعلمُ أنَّ نازعَ المِيْزاب مِنْ الشَّخصيَّات الَّتي تُقادُ مِنْ غَيْرِه، فيستمعُ لتحريض الآخرين فتنشبُ بين المُتخاصمين الفتنة، لا سيَّما إذا لم يجدوا مَنْ يتعاملُ معها بِحِكْمة، وكانَ جَدُّك لا مجالَ عنده للتَّنازل، ولا يقْبلُ الخَطأ إطْلاقًا.

وعند اجتماع أهل القرية للصَّلاة، جلسنا -كعادتنا- بعدها في ساحة المسجد، نستمعُ لأخبار بعضنا البعض، ونتناقلُ ما هُو جديد، ويكونُ المسجدُ على ذلك مَحَطَّةُ إعْلَامِنَا.

فقلتُ مُخبرًا إيَّاهم: لقد حصلَ هذا اليوم مِنْ عمّي فُلان كذا وكذا، فخالفني إلى داري في غير وجُودي، وخلعَ المِيْزابَ الَّذي وضعتُموه، واخْتَرتُم مكانَه، والآن أريدُ منكم حلًّا للمُشكلة، وتحديدَ مكانِ المِيْزاب، وأنَا أقبلُ رأيَكم ولَنْ أُخالفكم.

وأدْري أنَّ العَاقلَ منكم لن يقول: يبقى البيتُ بدون مِيْزاب، ولن يقول: نجعلُ مَصَبَّه داخلَ البيت، وبهذا لن تقولوا إلَّا أنْ يكون المِيْزابُ في مكانه الَّذي خصَّصتموه.

وبهذا أكونُ قد أثَّرتُ على قرارِهم، ووجَّهتُ نظْرتَهُم، وحدَّدتُ الخَيَارَ أمَامَهم.

وقفَ الجميعُ وقرَّروا أنَّه لا مكان له غيرُ هذا المكان، ولكنْ حَلًّا للمُشكلة، وحتَّى لا يصبَّ الماءُ في طريق المَارَّة، كان الاقتراح أن يُنفَّذ على هيئة **مَسِيلة**، وهي عبارة عن مسارٍ مخصّص يُحدَّد على الجدار، يُشكَّل بالجصّ أو الإسمنت على هيئة **مُنزلَقٍ مائل**، بحيث يسيلُ فيه ماء المطر نزولًا مع الجدار حتى يصل إلى الأرض. ومنها للطَّريق العام، فالنَّتيجةُ نفسَها ولكنَّ الطَّريقةَ مُختَلفة، والهدفُ إرضاءُ الطَّرفين وإخْمادُ نارِ الفَتْنة.

فوائدٌ تربويَّة:

١- بعضُ النُّفوس مُتشبّعةٌ بالحِقْد، ولوْ استطاعُوا إلى ذلك سبيلًا لقطعُوا أنْفَاسك غَيْرةً منك.

٢- أشباهُ الرّجال يسهلُ الضَّحك عليهم، واستعمالهم في الشّر بالإيحاء والتَّحريش.

٣- مِنَ الحِكْمة أنْ تستخدمَ عقْلَك بدلًا عنْ يَدِكَ في بعض المَواطِن.

٤- ومِنَ الحِكْمة ألّا تُحقّق هدفَ الشّيطان من الجِنّ والإنْسِ معًا.

الرَّفيقُ قبلَ الطَّريق

بعد انتهاء إجازة الصَّيف، سافرنا من الباحة إلى الطَّائف، وكان جَدّي بصُحْبتنَا، وفي أوّل الإجازة نذرَ نذْرًا وقال: هذا أوانُ الوفاء به، فكانَ نذْرُه أنْ يصرفَ المالَ الّذي بِحَوْزته في زيارةٍ للمدينة المُنوّرة على ساكنها أفْضلُ الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم.

فقال أبي: وأنَا جاهزٌ لذلك، بُشْراكَ أبي.

فقالَ لي: ما رأيُكَ أنْ تبحثَ لنا عن بعض كبار السّن من الرّجال الثّقات -يقْصِدُ جِيلَه-؟، وإلّا فجيلُنا -في نَظِره- ليس كذلك، أوْ في أسوأ احتمالٍ أنَّ جيلَنا أقلُّ ممَّا هُم عليه، وهذه نَظْرةُ كُلِّ جيلٍ لمَا بعده، معَ أنَّ هذا الجيل هُم صناعةُ الجيل قبْله!

فقلتُ: لا نحتاجُ إلى بحث، فمواقفُ السَّيارات المُتَّجهة للمدِيْنَة لا تخلُو من المُسافرين، فعسَى أنْ نُوفَّقَ في رِفْقَة طيّبة، وإنْ لمْ نَجِدْ فلَا حاجةَ لنَا بِهم.

فقالَ: الرَّفيقُ قبلَ الطَّريق، ونحنُ لا نريدُ السّيارةَ لأنَّنا سنُسافرُ مشْيًا على الأقْدام، وكانَ لا يتخيَّلُ المسافةَ ولا يهتمُّ بشأْنها، فالرّحلةُ -في نَظِره- رحلةٌ للدَّار الآخرة، وهُوَ ماضٍ في سَفَره وغيرُ مُبالٍ بمَا وراءَه، فكُلُّ شيءٍ مُلْكٌ لله وفي وَدَاعتِه.

فقلتُ: يا أبي لا أحدَ يسافرُ اليومَ على الأقْدام، ولا يوجدُ طريقٌ واضحُ المعالم، فقد هُجِرتْ الطَّريقُ منذُ سنين، ولا يوجدُ محطّات استراحة، ولنْ تجدَ رفيقًا، وليسَ لنا خِيَارٌ سوى السَّيارة.

فقال: وهذه السَّيارة صنعها أهلُ النَّار -يقصدُ الكُفَّار-، ومصنوعةٌ بالنَّار -يقصدُ صهْر الحديد وطَرْقِه وتَشْكِيله-، وتسيرُ بالنَّار-يقصدُ الوَقُود-، فلَا تصلحُ أنْ تكونَ مطيةُ المُسلم في زيارة مسجد نبيّه مُحمَّدٌ -ﷺ-.

ولكنَّه يئسَ منّي في تنفيذ فكرته، فكان هذا مُحالًا بالنّسبة لي، وقبلَ منّي على كراهية.

ركبنَا السَّيارة وأخذنا عدَّة أيامٍ حتَّى وصلنَا المدينة، فقلتُ: أرأيتَ كيف وصلنَا يا أبِي مِنْ دُون مشقَّة؟ فتبسَّم ضاحكًا، ولسانُ حاله يقول: لنْ تستوعبَ ما في خَاطِري يا بُنيّ.

فكانَ يكرهُ رُكوبَ السَّيارة لأنَّها تُتْعبُه، ولا يُطيق رائحةُ الوَقود، وحتَّى في سَفَرنا من البَاحة إلى الطَّائف إذا رافَقَنا، فإنَّه يتقدَّمُ قبلنا بنصف نَهَار، فنحنُ ننطلقُ في سَفَرنَا بعد صلاة الظُّهر مُباشرةً، وهو ينطلقُ من الفَجْر لا نَلْحقُ به إلَّا وقدْ قطعَ أكثرَ منْ ثلاثينَ كيلومترًا على الأقلّ.

فوائدٌ تربويَّة:

١- اختلافُ العُمُر، واختلافُ الثَّقافات يجعلُ محلَّ النَّظر في الأُمور مُختلفًا.

٢- الفطرةُ تجعلُ الإنْسانَ لا يتقبَّلُ أيَّ شيْءٍ يُخالفُها، ولا يتكيَّفُ مع الجَديد المُحْدَث بسُهولة.

نتيجةُ امْتِحَان الكَفاءَةُ في المِذْيَاع

حينما كنتُ في الصَّف الثَّالث المُتوسّط عام ٩٢-١٣٩٣هـ، وكعادتي في أوّل يومٍ دراسيّ اسْتلمُ فيه الكُتب، كنتُ أتصفَّحُها على عَجَل، وكانَ من بينِها كتابُ المُطَالَعَة، فكنتُ أقْرأُهُ كاملًا، لا سيَّما إذا شدَّني فيه خبرٌ كقصَّة: (جابرُ عَثَراتِ الكِرَام).

وكانَ هذا آخر عهدي بالكتاب، أمَّا الكتابُ المُرافق له فهُو كتابُ (بَطَلُ الأبْطَال)، فحروفُه صغيرة وخَطُّه دقيق، والمعلمُ لمْ يُخبرنا عنه سوى أنَّه للمُطَالَعَة، أيْ أنَّه ليس مطلوبًا منَّا قراءَتَه إلَّا لِمَنْ يَرْغَب، لدرجةِ أنِّي لا أدْري مَنْ هُو (بَطَلُ الأبْطَال) هذا؟، -ﷺ- ولا أدْري ما موضُوعُ الكتَاب!

فجاءَ الاختبار النّهائيّ، وكانَ وِزَارِيًّا للصَّف الأخيْرِ مِنْ كُلّ مَرْحلة، وفي أوّل يومٍ من الاختبار كانَ لديَّ اختباران: الحِسَابُ الّذي لا أحملُ همَّ مُذاكرَتِه لِعِشْقِي له، وَالمُطَالَعَةُ الّتي لا أهتمُّ فيها؛ لأنَّ العادةَ جَرَتْ باختبارها شَفَويًّا -افْتَح صفحةً عشوائيَّة واقْرَأ منها-، ولمْ أعْلم أنَّ اختبارَها سيكونُ تحريريًّا في هذه المرحلة!

ولكنّي تفاجأتُ بمَا حصلَ معي، وفي هذا تقصيرٌ من المُعلّم والمدرسة، فكيف يَغْفُلونَ عَنْ إخْبَارنا بخبرٍ مَصِيْريّ كَهذا؟!

فكانَ أوّلُ سُؤالٍ يقول: لقدْ قرأتَ موضوع (جابرُ عَثَراتِ الكِرَام)، - نَعَمْ قرأتُه أوّل يومٍ في العام الدّراسي، وأعْجبتْني القِصَّة جدًا، وأذكرُ بعضَ تفاصيلها- فَأجِبْ عمَّا يأتي:

١- مَنْ هُو جَابرُ عَثَراتِ الكِرَام؟

- والله لا أذكرُ اسمه، ولا أُفكّر في حِفْظه، ولكنّي أحفظُ القصَّة كاملةً بتفاصيلها، دونَ أسماءٍ طبْعًا!

٢- مَنْ هُو الوَالِي الّذي سجنَ جَابرُ عَثَراتِ الكِرَام؟

- أيضًا لا أذكرُ اسمه، ولا أهتمُّ بذلك.

٣- متَّى حَدَثَتْ القِصَّة؟

- إلَّا الأعْوام والتَّواريخ لا تسألني عنها.

ومثلُه السُّؤال الثَّاني، أمَّا السُّؤال الثَّالث فيقول: قرأتَ قصَّة (بَطَلُ الأبْطَال) فأجِبْ عَنِ الآتي، والحقيقةُ لمْ أقْرأ المُقدّمة حتَّى فكيف أُجِيْبُ عَنِ الآتي؟!

توقَّعتُ نتيجتي وَهِيَ رسوبٌ في مادَّة المُطَالَعَة، فقدْ شعرتُ بهذا منْذُ قَرَأْتُ الأسْئِلة.

تفاجأ أبي ممَّا حصلَ لي، وكانتْ النَّتيجةُ تُعْلنُ في الإذَاعَة الرَّسميَّة لجميع نتائج الصُّفوف الدّراسيَّة مِنْ كُلّ مرْحلة: الصَّفُ السَّادس مِنَ المَرْحلة الابْتدائيَّة، والصَّفُ الثَّالثُ المُتوسّط مِنَ مَرْحلة الكفاءَة، والصَّفُ الثَّالث الثَّانوي أوْما يُعادلُه مِنْ دُبلوم المعاهد.

فكانَ لوَقْع الأسماءِ في الإذَاعَة شعورٌ لا يُوصف، ولا يُعرفُه إلَّا مَنْ ذاقَه، وكانَ يسبقُ قراءةَ الأسْمَاء ويَعْقُبها بعْضًا مِنْ الأغَانِي والأهازيج، الَّتي تُشيْدُ بنجاح الخِرّيْجِينَ، وتباركُ لهم بطريْقةٍ تُشيعُ الفرحَ في نفوسهم.

بدأ المذيعُ بقراءة أسْماء النَّاجحين، مدينةً تِلْوَ مَدِيْنَة، ومدرسةً بعدَ أُخْرَى، والنَّاس تسمعُ في ترقُّبٍ وصَمْت، ولا يُوْجَدُ إلَّا إذاعةٌ واحدةٌ، تُعْلنُ نتائج جميع الطُّلَّاب المُتخرّجينَ في المَمْلكة العربيَّة السُّعوديَّة، في مراحلها الثَّلاث.

وصلَ الدَّورُ لمدْرَسَتِي (مُتوسّطة المُثنَّى بن حَارِثَة)، وبدأ المذيعُ في قراءة الأسْماء، مُرتَّبةً ترتيبًا هِجَائِيًّا، والجميعُ يترقَّبُ بشوْقٍ لحرف (العَيْن)، وصلَ المُذيْعُ لحرف الغَيْن ولم يذْكُر اسمِي، وكانت النتيجةُ - عِنْدِي- مُتوَقَّعَة، رسوبٌ في مادَّة المُطَالَعَة.

وقَدْ أنْسَانِي حُزْنِي وَعِتَابِي -لِنَفْسِي- كلَّ رُدُودِ الأفْعالِ مِنْ حَوْلِي، وكانَ جامُ غَضَبِي مُنْصَبًا على جَهْلِي مِنْ أنْ يكونَ للمُطَالَعَةِ اختبارٌ تحريْرِيّ، والأشدُ والأنْكى مِنْ ذلكَ (كتابُ القِصَّة المُلْحَق بالمُطَالَعَة)، والّذي لا أعْرفُ عنهُ شيْئًا.

قضيتُ أيّام الصَّيْف في قراءة كتَابِيّ (المُطَالَعَة وَالقِصَّة "بَطَلُ الأبْطَال ﷺ)، وهيّأتُ نَفْسِي لأيّ سُؤالٍ يَرِدُ في الاخْتبَار.

دخلتُ الاختبار وخرجتُ منه مَسْرورًا، وتيقَّنتُ بأنّي سأحصلُ على الامْتيَاز؛ لأنّي كنتُ على بَصِيْرةٍ بماهيَّته وكيْنونته.

أمَّا ثِقةُ والدي بي فجعلتْهُ ضامنًا نَجَاحِي في اللّحظة ذاتِها؛ لأنّه قرأ تعابيرَ النَّجاح بوجْهِي، فاشْتَرى لِيْ كبْشًا؛ تعبيرًا عَنْ فرْحَتِه بنَجَاحِي، وكانَ لنَجَاحِي قيمتُه، فهو انتقالٌ من المَرْحلة المُتوسّطة إلى المَرْحلة الثّانويّة، وهيَ بوّابةُ المُسْتقبل والوظِيْفة، الّتي يُعوّل عليها والديّ كَثِيْرًا.

انتظر الجميعُ إعلان النتيجة عبر المِذياع، لكنَّ الصوت كان مشوَّشًا، فخرج أبي إلى الشارع محاولًا التقاط الإشارة.

ويا للأسف! لم يسمع اسمي للمرة الثانية، فاغتمّ لذلك حزنًا شديدًا.

ولمّا لم يجد ما يعبّر به عن خيبته، قام بذبح الكبش الذي كان قد أعدّه للاحتفال؛ تنفيسًا عن ألمه.

فلا فرح قرع الباب، ولا نجاح أطلّ من نافذة الانتظار؛ وإنما خيبة تتوسّد صمت المذياع.

فسَألني هل أجبتَ كمَا ينبغي في الامتحان؟ فقلتُ: نَعَم، بلْ وضامنٌ النَّجاح -بإذن الله-.

لا زالَ الشَّكُّ مُسيْطرًا على المشْهد، فذهبَ يسألُ والدَ صَدِيقي وسَمِيّي قائلًا: هلْ سمعتَ اسم ابني وابنك؟ فهما يحْملان الاسمَ نفْسُه، فحتَّى هُوَ لمْ يسْمع شيئًا بحُجَّة تَشْويش الصَّوت.

فقالَ مُسْتدْركًا: لا أظُنُّ أنَّ ابني ينجح، فكانَ مُكْمِلًا في خمسِ موادّ!

حينها انتابَ أبي شَكٌّ، فهل كانَ عليٌّ مُكْمِلًا في مادّةٍ واحدةٍ، أمْ أكْثَر؟!

وبعدَ أنْ ذبحَ الكَبْش، وسمعَ من والدِ صَدِيْقِي ما سَمِع، ذهبَ إلى المَدْرسَة ليتحقَّق مِنْ صحَّة الخبر، فسألهم: هل كانَ عليٌّ مُكْمِلًا في مادّةٍ واحدةٍ، أمْ أكْثَر؟!

فبمُجَرّد مَا سمعَ الأساتذةُ اسْمِي، طفقُوا يباركونَ لهُ نَجَاحِي، فبذلكَ الخبرُ تَحقَّق مِنْ صِحَّة نَجَاحِي، وعلمَ أنَّ النَّتيجةَ أصْبحتْ رسَمِيَّة.

فانطلق لأقْرب دُكَّانٍ، وأحْضرَ للمُعلّمين صندوقَ بِيْبسِي ومِيْرِنْدَا، فكانَ مشروبًا راقيًا ذلكَ الزَّمان.

ثُمَّ جاءَ إلى البيت مُبشّرًا أهْلي، ومُباركًا لهم النَّجاح، فطلبَ مِنّي أنْ أذهبَ للمدْرسة؛ لاستلام اسْتمَارة النَّجاح، وإعادة صُنْدُوقيّ البِيْبسِي والمِيْرِنْدَا الفارغة، واستلام التَّأمين عليها.

سرّني خبرُ التأمين، إذ سيكون من نصيبي، لكنني في الوقت ذاته شعرتُ بالحزن؛ فأنا من اجتهد ونجح، بينما غيري يتنعّم بالمشروبات التي لا نراها إلا في مناسباتٍ نادرة.

رجعتُ إلى المنزل، فوجدتُ أبي قد عوّضني عن الكبش الذي ذبحه في ساعة غضبه، بكبشٍ خيرٍ منه، فرحًا وابتهاجًا.

كانت لحظاتٍ مشوبةً بالتوتّر والحزن، لكنها امتزجت بفرحٍ لا يُوصف؛ فقد يكون حزن أمي أضعافَ حزن أبي، لا من أجل رسوبي فحسب، بل لغضب أبي الذي أثقل قلبها.

ولا يُدرك هذا إلا من عرف مكانة شهادة الصف السادس آنذاك؛ فهي مشفوعة بتوقيع الوزير، وتفوق في قيمتها شهادة الثانوية اليوم، بل إن شهادة الكفاءة المتوسطة كانت تعدل، بل تفوق الشهادة الجامعية حاليًا من حيث القيمة، والأثر، والفرحة التي تصحبها.

فوائدٌ تربويّة:

١- شُعورُ الوالد بالنّجاح وتحقيق الأمل، يختلفُ عن شُعور الابن؛ وذلك لاختلاف غايته، ونَظْرته، وأمَلِه من هذا النّجاح.

٢- الغضبُ يُخرجُ الانسانَ عَنْ طَوْرِه، ويرتكبُ حماقاتٍ يندمُ عليها.

٣- العاقلُ حيْنَ غَضَبِه يتصرّفُ بِحِكْمَة، ويكْبَحُ جِمَاحَ غَضَبِه، وينصرُف إلى فِعْل الأَنْفَع والمُفِيْد.

٤- التَّراجُعُ عَنِ الغَضَبِ، وتَحْوِيْل مِسَارِه -عمليًا- مِنْ حُزْنٍ إلى فَرَحٍ، مِنْ شِيَمِ الرّجال الحُكَمَاء.

التَّقديمُ بمَعْهدِ إعْدَادِ المُعلّمِين

كان التَّقديم على مَعْهدِ إعْدَادِ المُعلّمِين الخِيَارُ الوحِيْد لِي، وإن لم يُوافِق رغْبَتِي، فلَا يُوْجَدُ غيْرُه في مَدِيْنَة الطَّائف؛ فمعاهدُ التّجَارة، والمعاهدُ المِهَنيَّة لا تتوفَّرُ إلَّا في جُدَّة، ولم تكن الغُرْبَةُ خِيَارًا مَطْرُوحًا.

كان أبِي يحملُ همَّ التَّقديم، والمُسْتقبل، والدّراسة، والوظيْفَة، والرَّاتب، وأنَا لا أحملُ همَّ شيءٍ مِنْ ذلك، فتَجَارِبه في الحياة، ومُشَاهداته، والتَّقلُّبات الَّتي عاشها، ونظرتُه للمُستقبل، جعلتْ منهُ إنْسانًا بعيدَ النَّظر، وثَاقِبَ البَصِيْرة، فكانَ يرسِمُ مُسْتقبلي لكوني ابنُه الأكْبر، وقنْطَرتِه نَحْو حياةٍ كريْمَة.

لهُ صديقُ طفولةٍ اسْمُه الأُسْتَاذ: جَمْعَان الغَامِديّ، مِنْ قَرْيَة الجَادِيَة بغامد -مَسْقَطِ رَأسِ أبِي-، وكان مُراقِبًا في مَعْهدِ إعْدَادِ المُعلّمِين، فاعتمدَ -بعْدَ الله- عليه في تقديم أوْرَاقِي؛ للدّراسَة بالمَعْهَد، ولَا سِيَّما بأنِّي خريجٌ مِنْ دَوْرٍ ثانِي، وعليه إقبالٌ شَديْد؛ لأنَّه يُغطِّي مساحةً جُغرافيَّة كبيرة، تصلُ لعِدَّة مناطِق، والقَبُولُ يتمُّ عبرَ مُقابَلةٍ شَخْصيَّة، وهُو أمرٌ لم أعْهَدهُ.

أكملتُ مَلفِّي، وقدَّمتُ أوراقِي، وأتْممتُ الكَشْف الطّبيّ، وعلمْتُ مِنَ الإدارة أنَّ الموعدَ يومُ السَّبْت، في الثَّامن مِنْ شَوَّال، حيثُ تكونُ بدايةُ الدّراسة، ولمْ أسْمَعْ بأنَّ هُناكَ مُقابَلةٌ شَخْصِيَّة، فتوقَّعتُ أنّني قُبِلْتُ بمُجَرَّد ما قدَّمتُ أوْراقِي.

تفاجأتُ بطارقٍ يطرقُ بابِي، وذلكَ في الأُسْبُوع الَّذي يسبقُ الدّراسة، فإذَا بالأُسْتَاذ: جَمْعَان الغَامِديّ، وكانتْ سيَّارتُه مِنْ نوْع "هايْلُكس"، وتبدُو على مُحيَّاهُ آثارُ التَّوتُّر والغَضَب.

وأخذَ يُعاتِبُني بسُؤاله: لماذا لمْ تحْضُر اليومَ للمُقَابلة الشَّخْصِيَّة؟!، فقلتُ: لا عِلْمَ لديَّ، أخْبرُوني -فَقَطْ- بالحُضُور يومَ السَّبت.

فطلبُ منّي أنْ أُصاحِبَه للمَعْهَد، فوجدتُ مجموعةً من الطَّلبة، ينْتظرُونَ دوْرَهم في المُقَابلة، فدخلتُ على اللَّجنة، وكانت مُكونةً مِنَ الأَسَاتذةِ: "عبد الله شَاكِر، أحمد الشَّافِي، عبد الله المجلد"، -رحمهُم الله أحياءً وأمواتًا-، وتفاجأتُ بالأخيْر فقدْ كانَ وكيلًا لمدْرَسَتِي الَّتي تخرَّجْتُ منها! فمَا الَّذي جاءَ به؟ وعلمْتُ بعْدَها بنقْله وكيلًا للمَعْهَد، ونِعْمَ الوَكِيْل.

وكانتْ هذه أوَّلُ مُقَابلةٍ شخْصِيَّةٍ أُجْرِيها، ولمْ أسْمع بها مِنْ قَبْل، وكانَ الطُّلَّاب في الخَارج يسألُ بعضُهم بعضًا: ماذا قيلَ لك؟ وعَمَّ سألُوْك؟ فشعرتُ -مِنْ حديْثِهم- أنَّني داخلٌ لمَعْرَكة، فإمَّا النَّصْرُ أوْ الخَسَارة!

دخلتُ اللَّجنَة هادِئًا، فجلستُ في مكانِي، ولا أعلمُ أكانَ الأستاذُ جَمْعَان موجُودًا أمْ لا؟ إلَّا أنَّني شعرتُ بأمانٍ، وأنَّه بالقُرْب مِنِّي، واطمَأنَنْتُ لوُجُودِه أكثرُ مِنْ وَالِدِي؛ لكونه صديقٌ حميمٌ له، ومَا عَرِفْتُه إلَّا في هذه المُنَاسبة فكانَ نِعْمَ الصَّدِيْق، وقامَ بالمُهِمَّة على أكْملِ وجْهٍ، وقَبلَ التَّفويض.

وجَّه لِيْ أحدُهم سُؤالًا فقال: في أيِّ مدرسةٍ تخرَّجت؟ فقلتُ: المُثنَّى بن حَارِثَة، فسألَني الآخرُ بقوله: ومَاذا تَعْرفُ عَنِ المُثنَّى بن حَارِثَة؟ وأنَا -فِي نَفْسِي- مُتَرَدِّدٌ؛ لأنَّ الحَقيْقَة لا أعرفُ عنهُ شيئًا، ولكنْ لَا بُدَّ لِيْ أنْ أُجِيْب.

فقلتُ: هُو مِنْ الشَّخْصِيَّات التَّاريْخيَّة، فجاء المَدَدُ مِنْ أحدِ أعضاءِ اللَّجْنَة، ثمَّ طرحَ أُسْتَاذِي (عبد الله المجلد) سُؤالًا -لا زلتُ

أذْكُره، وَلأوَّل مرَّةٍ يَطْرُقُ أسْماعي، فحُفِرَ في ذَاكِرَتِي منذُ ذلكَ الوَقْت- يقولُ فيه: أمَّا، وأمَّا، وأمَّا، في أيّ سُوْرةٍ مِنْ جُزْء عمَّ؟ لمْ أتذكَّر اسْمُ السُّورة أوْ مَطْلَعها، ولكنْ سريعًا ما قُلت: (فأمَّا اليتيمَ فلَا تَقْهَر) وَ (أمَّا السَّائلَ فلَا تَنْهَر)، فجاءَ المَدَدُ مِنْ أحَدِهم فقال: يَعْنِي سُوْرةُ الضُّحَى؟ فقلتُ: نَعَمْ، فطلبُوا مِنِّي قراءَتَها.

مرَّ الوقْتُ سريعًا كلمْحِ البَصَر، وليسَ لِيْ إحَاطةٌ بأنَّ مَصِيْري تشكَّلَ مُنْذُ اللَّحْظَة، وأنَّ تَمْتَمتِي بتلكَ الكلمَات كانتْ بدايةِ نُقْطَة التَّحوُّل، فكانَ قَبُول في رِسَالة (مُعَلِّمِي النَّاس الخَيْر)، فللّه الحمدُ والمِنَّة.

فوائدٌ تربويَّة:

١- الصديقُ الحَقيقِيّ الَّذي ينْشأُ معكَ منْذُ نُعومَة أظْفَارك، وهُو مَنْ يبقَى معكَ صديقًا صادقًا، مَهْمَا تباعدَ الزَّمانُ والمَكان، وتفرَّقتِ الأجْسَاد.

٢- عنْدَ تَفْويض مُهِمَّة لصديقٍ صدُوقٍ؛ فإنَّه يحملُ مِنَ الهَمّ مَا لَا تَحْمِلُه، فيدْركُ حَجْمَ المَسْؤُوليَّة، وعِظَم الأمَانة.

٣- كُلُّ مَوْقفٍ جَدِيْدٍ يُضِيفُ لكَ خبرةً جديدةً، فالمَواقِفُ إنْ كانتْ صادمةً لَا تُنْسَى.

السَّفرُ إلى جَازَان

في شهْر رمضان من العام ١٣٩٦هـ، تعيَّنْتُ مُعلِّمًا في منطقة جَازان، وكانَ أوَّلُ سفرٍ وغُرْبة عن الأهل والدِّيَار، وكعادة الآباء في شُعورهم وخوفهم على أبنائهم، كانَ الشُّعورُ ذاتَه ينتابُ أبي وإنْ لمْ يُفْصِح عنهُ، ولم يكنْ لهُ بُدٌّ من المُوافقة عليه، فقرارُ التَّعيين قرارٌ وزارةٍ لا رَجْعَة فيه، وفي الوقت ذاته فنحنُ أحوجُ إلى راتب المُعلِّم، وكانَ قُرابَةُ الألف ريال.

فاغتمَّ أبي واهتمَّ بسَفري، فاشترى لي حقيبةً مُلوَّنةً كأنِّي أنْظرُ إليها الآن، وكأنَّها النُّسخةُ الوَحِيْدةُ في الأسْوَاق، فهِيَ لمْ تكنْ جديدة ولكنَّها نظيفة، حجمُها ضِعْفُ حَجْم حقيبة اليَدِ بثلاثِ مرَّات، تَفِي بغرضِي، وتزيدُ عن الحَاجَة.

ومِنْ شدَّة حِرْصِه اتَّجَه إلى أحد الخَرَّازِين؛ ليعملَ لها قُفْلًا فتكون أكثرُ أمانًا، فوضَعتُ فيها ملابِسي، وجُزْءًا من مَكْتَبتي -مِنْ بيْنِها كُتب الدُّكتور (مُصْطَفى محمُود)-، كالعنْكَبُوت، ورجلٌ تحْتَ الصِّفْر، ورِحْلتِي من الإلْحَاد إلى الإيْمان، وأطْفَالٌ تحْتَ الطَّلب ومنعُ الحَمْل لصبري القبَّاني، ومن الخُطُوبة إلى الزِّفاف لكامل مهْدِي، مع كتبٌ أُخرى كموعظة المُؤمنين، وتنبيه الغَافلين، والرُّوح لابن القيم وغيرها.

وكانتْ رغْبةُ والدي ركُوب سيارة مرْسِيْدس -لُوْري-، وهي لنقل الرُّكاب والبضَائع، من الطَّائف حتَّى صَنْعاء، مرورًا بجَازان، فهِيَ وسيلةُ النَّقل البرِّي الوحِيْدة.

فطلبتُ منهُ أنْ يكونَ سَفرِي بالطَّائرة من جُدَّة إلى جَازان، وأنْ أكونَ برِفْقة زُملائي، فوافقَ سريعًا، وكانتَ أوَّلُ رحلةِ طيرانٍ مدنِيّ لِيْ، وأوَّلُ غُرْبَة.

وسبقَها رحلةُ رُكُوب طائرة (هِلْيُكوبتر) في الإحْصَاء السُّكاني عام ١٣٩٤هـ، وكانَ أوَّلُ إحصاءٍ تقومُ به المَمْلكة العربيَّة السُّعوديَّة بالمفهوم الحَالِي.

ودَّعني والدِي وأنا أنْزِلُ الدَّرجَ مُسرعًا -فزُملائي بانْتِظاري بالأسْفَل- بدعواتٍ سمعتُ شيْئًا منْها، وغابتْ أشْيَاء، فقدْ كنتُ أنتظرُ نداءً منهُ يقولُ فيه: ارْجَع ولا تُسَافر؛ خوفًا وشفقةً بحالي.

فاتَّجهنا إلى جُدَّة، ثُمَّ لجَازان، وكانتْ تجربةً استثنائيَّةً في كُلّ شيء[١٦]، وعُدنا بعد أُسْبوعٍ لقضَاء إجازة العيد، علىَ أنْ نسْتكْملَ الاجراءات بعد انتهاء العيد.

أخبرني صديقُ والدِي (العمّ عبد الله بن سَعِيْد، رحمه الله) -وكانَ مُعْجبًا بحرْص أبي علينا- أخبرني بخبرٍ بعدَ وفاة أبِي فقال: حيْنمَا ودَّعْتَنا وأنتَ مسافرٌ لجَازان، وبعدَ مُغادرتكَ للبيت، خشيتُ على أبيكَ أن يفقدَ عقْله وَجْدًا عليك، فلسَانُه لمْ يفْتر مِنَ الدُّعاء لك، وكأنَّك داخلٌ في حربٍ لنْ تعُودَ منها!

فكان يُردّدُ بحُرْقَة ويقول: (اللَّهمَّ احفظ عليًّا، واعصمه، واصرف عنه كُلَّ مَكْرُوه)، ودعواتٍ أُخْرى يفيضُ بها قَلْبَه قَبْل لسانه، وكأنَّهُ يقْرأُ وِرْدًا مِنْ كتابٍ دُوْنَ تَكَلُّفٍ أوْ تَلعْثُم، حينَها اتَّسعت الدُّنيا في عيْني، وكأنَّ الله أرْسلهُ ليُبشِّرني، ويُخفِّف وطْأةَ أحْزَانِي.

وعمّي (عبد الله) كانَ مِنْ أقْربِ الأَصْدقاء لأبِي -رحْمةُ الله عليْهما- وبيْنما هُوَ يصفُ مشهدَ وداعي، فسرحَ خيالي معَ أبي وكأنَّه أمامَ ناظري، وكنتُ أَعِيْ دعَواتِه تلكَ جيّدًا؛ لأنِّي أعرفُ النَّاسِ بأبِي حينما يُداهمُه الهمُّ

١٦ سيكونُ مقالٌ أوْ كُتيّب بعنوان (الرَّحيلُ إلى فيفاء)، وفيه تفاصيلُ الرِّحلة -إن شاء الله-.

والغمّ، وأعْرفُ منهُ شدَّةَ الحِرْص علينا، وأتفهَّمُ سببَ خَوْفِه، وبُعْد نَظَرِه.

ولكَ أنْ تتخيّل أثرَ ما قاله العمّ (عبد الله) على من كانَ يَسْمعُ تلكَ الدَّعوات الحَرَّى، وما يعتملُ في نفوس أبنائه من الشَّوْق والوجْدِ عليه، وفي المُقابل كان الخبرُ ألطفَ رسالةٍ تصِلُنِي في أحْلك ظرفٍ مرَرْتُ به، وكأنَّها طمأنينةٌ من الله، وصكُّ غُفْرَانٍ لِي.

وأذكرُ أنَّني أرسلتُ لأبي رسالةً إثْر تعييني في مدرسة (أم نفيعة) بفيفاء، وكانتْ بعد مرور أسابيعَ في الغُرْبة، ولو كنتُ أدركُ حينها حجم قَلَقِه لأرسلتُ لهُ تقريرًا يوميًا بتحرُّكاتي، فيا للأسَفْ!

وحتَّى لو فعلت فالبريدُ وسيلتي الوحيدة، ولا يصل فيفاء إلَّا في يومٍ مُحدَّد، فلأهل المنطقة اجتماعان: اجتماعُ أهْل السُّوق يوم الاثنين، واجتماعُ المُصلّين يومُ الجمعة، وفيهما تُرسلُ الرَّسائلُ وتُستقْبل.

فمُذ وصولي لجَازان لمْ أُرسل لأبي غيرَ رسالتين، أخْبرتُه فيها بحَالِي وأشْوَاقِي، وبعد مرورِ أسابيعَ عِدَّة وإذْ برسالةٍ مِنْ أُمّي، بَعَثَتْها دُوْنَ عِلْم أبي، تقول فيها: أبوكَ قَلِقٌ عليك، وبالُه مشغول، فلا تُؤخّر عنَّا رسائلك.

فأصبحتُ أُرسلُ لهم رسائلَ دوريَّة ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، ومن الصَّعب أنْ يُدْركَ الابنُ شعورَ أبيه، ومَنْ ذاقَ عَرِف!

فأنا شابٌّ يافعٌ، مُقْبلٌ على الحياة بحُبّ، أنعَمُ بخيرٍ وأمانٍ وظيْفيّ، أعيْشُ بين أصدقاء يُحبُّونني، فكنتُ أظُنُّ -جاهلًا- أنَّ الجميعَ يشعرُ بمَا أشْعُر به، فلا داعيَ لمعرفة أخباري أولًا بأوَّل، ولا حاجةَ لهذا الخَوْف والقَلَق.

لكنِّي أدْركتُ الآن أنَّ المُغيَّبَ عن حالي لا يُلام، وأنَّ من البِرّ بأبيكَ أنْ تُدْخلَ السُّرورَ عليه، وألَّا تكونَ سببًا في هَمّه وغَمّه وحزنه، وفي زمن

التَّقنية والاتِّصال المَرْئِيّ يكفيك أنْ تُشاركهُ مَوْقِعَك المُباشِرَ ليطْمَئِنَّ عليك، وتطْلِعه على تَحَرُّكَاتِك، وتأكَّد أنَّه يسيرُ معكَ في كُلّ خُطْوة، وذلكَ يُسْعِدُهُ، ودعوَاتُه تُلاحِقُك، ورعايةُ الله تَحُفُّك، وتأتيكَ الدُّنيا راغِمَة.

فوائدٌ تربويَّة:

١- إذا أرادَ اللهُ بعبده خيرًا ساقَ له المَواقِفَ والتَّجارِب الَّتي تَصْقِلُ شَخْصيَّته.

٢- الأحْداثُ الَّتي لا تُنسى، هي الَّتي وضعتْ بصْمَتها في حياتك، وأثَّرت على شَخْصيَّتك.

٣- يبقى اهتمامُ الأبِ بابنه مَسْؤوليةً لا يخْلَعُها الأبُ عنْ عَاتِقه، مَهْمَا كَبُر ابنه.

٤- في التَّنقُّل والأسفار، والابتعادُ عن الأهلِ قليلًا، والاعتمادُ على النَّفس، والانفتاحُ على الثَّقافات الأُخرى، تَجَارِبٌ مجَّانيَّة قدْ لا تجودُ بها الجامعاتُ ولا الكتبُ عليك.

٥- خوفُ الأب وقَلَقُه الدَّائم عليك، قدْ لا تُدْركهُ في أوَّل عهْدك، وليسَ من البرّ أنْ تدعَ أبيك يُصَارِعُ هذا الشُّعور.

الشَّاهدُ ربَّ هذا الهِلَال

كانَ (غافل) يعيشُ في نعيمٍ وراحةِ بالٍ وسَتْر، مَعَ زَوْجِه وولده، ولم يكن لها قريبٌ سوى أخِيْها (غائب)، وكانَ يُعاني مِنْ خللٍ عقليّ، كثيرّ السَّفر والغياب، يغيبُ عنهم فترةً ثمَّ يَجِيئُ فجأةً، فلَا يُفْتقدُ حين غِيابه، ولا يمكنُ التَّنبُّؤ بقُدُوْمه.

استحوذَ الشَّيطانُ على (غافل)، فقرَّرَ أنْ يقتلَ المعتُوه (غائب)، وحينها سيصبحُ الإرْثُ لزوجه؛ لأنَّها الوريثُ الوحيدُ له، فلنْ يُنازعَه أحدٌ ولنْ يُشاركَه

وكانت زوجُه في زيارةٍ لقريبةٍ لها، وستمكثُ عندها أيَّامًا، وكانت الزِّيَارةُ جزءًا من خُطَّةِ زوْجِها.

فأقدم على جُرْمِه وقتْلَ صِهْرَهُ خنْقًا، فقدْ كان (غائب) مُسْتلقيًا على ظهْره، فتفاجَأ بصِهْرِهُ جاثمًا على صَدْره؛ يريدُ خنْقَه.

فقالَ مُتعجّبًا منه: ماذا تريدُ مِنّي؟ فقالَ: أُرِيْحُكَ من الحياة، فقال: ألَا تَخْشَى القصَاص؟ فقال: لنْ يرانَا أحد، ولنْ يعْلَم بموْتِك أحد، فموتُك خيرٌ -لنا ولكَ- مِنْ حيَاتِك!

فقال (غائب): ولكنْ يشهدُ عليكَ ربَّ هذا الشَّهر[١٧]؛ فقد رآهُ حينما أطلَّ من كُوْةٍ في سقف الدَّار.

فتمَّت عمليةُ الاغتيال، ومواراة جُثمانه في جُنْح الظَّلام، بعيدًا عن الأنْظَار.

وبعدَ أيَّامٍ عادت زوجُه ولمْ تفتقد أخَاها، فمثْلُه لا يُفْتَقد؛ لعدم تنبُّؤها بمُغادرته وعوْدَته.

---

[١٧] يقصدُ القمر حين يكونُ بدْرًا، فقدْ كانُوا يُسمُّونه شهرًا.

وبعدَ حولٍ كامل، وفي مثل تلكَ اللَّيلة، كان (غافل) ينامُ في المكان نفسه، فإذا بالشَّهْر يطلُّ عليه، فتذكر فعْلَتهُ، فإن غابَ (غائب) فإنَّ الشَّاهدَ لا يغيب، فأصابتهُ رِعْدةٌ وحُمَّى كادتْ أنْ تخلعَ قلبه.

لاحظتْ زوجته التَّغيُّر الَّذي اعتراه، فسألتْهُ ما بك؟ فقالَ: لا شيء، ولكنَّ حاله يزدادُ شِدَّة وهلعًا، فقرَّر أنْ يُخبرها بجُرْمِه الشَّنيع؛ لعلَّها أنْ تُخفِّفَ عنه، وتشاركَهُ هَمَّهُ وفزعَه.

فقالت: الحمدُ لله على قضَاء الله وقَدَره، لا تخفْ فلمْ يَرَكَ أحدٌ، وليس له وريثٌ يُطالِب بحقّه سوايَ، ولنْ أفقدَ زوجي كما فقدتُ أخي، فسكنتْ نفْسُه واطْمَأن، وكأنْ لمْ يكُن شيئًا.

نزلَ الخبرُ عليها كالصَّاعقة، وهي لا تزالُ بين مُكذِّبة ومُصدِّقة، فسألتْهُ: ومتى حصلَ كُلُّ هذا؟ فقال: في مثْل هذا اليوم من العام المُنْصرم.

وأين واريتَ جُثمانه؟ فقال: دفنتُه في المِذْوَد[١٨]، فهدَّأت مِنْ رَوْعه حتَّى غلبه النَّوم، فانطلقت إلى مَسْرح الجَريمة وحفرت المكان، فوجدت الخبرُ صحيحًا.

انتظرت حتَّى أذان الفجر، وزوجها في سباتٍ عميقٍ بعد أنْ تخفَّف من الهمّ الَّذي أصابه، والجُهْد الَّذي قضَّ مضْجعه.

وبعد انقضاء الصَّلاة، خرج المصلون مِنْ مسجد القرية، فإذا بزوجة (غافل) تنتظرهم بالباب.

فقالت: لا يخفاكم غيابُ أخي منذ عام، ولم نفقدهُ لأنَّ هذا ديْدَنه، ولكنْ تبيَّن لي هذه المرة أنَّه لم يرحل، وإنَّما قُتلَ منذُ عام.

ردَّ الجميعُ بصوْتٍ واحد: ومنْ قتلَه؟

---

١٨ المِذْوَد: المكان الَّذي يُوضع فيه علفُ الدَّواب.

فقالت: زَوْجي، أخْبرني البارحة، والمقتولُ مدفونٌ بالمِذْوَد منذ عام.

انطلقَ أهلُ القرية ليتحقَّقوا من خبرها فوجدوُه صحيحًا، فسألوا زوْجها فأخبرهم بما أخبرتهم به، واعترفَ بأنَّ الشَّهر-البَدْر- حينما بزغ من الكُوَّة تلك اللَّيلة، أحدثَ فزعًا في قلبه، وتذكَّر قول (غائب) حينما همَّ بخنْقه، فكانَ يقول: "يشهدُ عليكَ ربَّ هذا الشَّهر"

فأصدرُ أهلُ القرية أمر الإعدام على (غافل)، قاتُل صِهْرِه، وكان ذلك في الوقت الَّذي لم تكن فيه سُلْطَة سوى سُلْطَة القبيلة.

فوائدٌ تربويَّة:

١- إنَّ اللهَ يُمْهِل ولا يُهْمِل.

٢- تتحقَّقُ في هذه القصَّة مقولة: "بشِّر القاتل بقتله، ولوْ بعدَ حين"

٣- دمُ المسلمُ لا يروحُ هدْرًا.

٤- عدالةُ السَّماء لا تغيبُ وإنْ تأخَّرت، أمَّا عدالة الأرض فقدْ تغيب.

أبو سَنَد الغَاوِي

هذه قصَّةُ رجُلٍ زيَّن الشَّيطانُ له حَلِيْلة جَارِه، فتبادلَ معَها عباراتٌ الإعْجاب والثَّناء، فتطوَّرتُ العبُارات إلى مشاعرَ لم يستطِعْ كبْحَ جِمَاحِها

فخرجتْ مِنْ فِيْهَا كلمةٌ -من وحْي الشَّيطان- قالت فيها: لولَا فلانٌ -المغْدُور به- في الوُجُود لكنتَ أنتَ مكَانَه، فأخذها الغَاوِي بمأْخَذ الجِدّ فقال: ولو أخفيتهُ عن الوُجود، أتقبلينَ بي؟

فقالت: هذا يومُ المُنَى! فطارَ عَقْلُه، وتعلَّقَ قَلْبُه، وأطْلَق العَنَانُ لخَيَاله، فبدأ يُحِيْكُ المُؤامرة.

فكانَ زوجها يسرحُ بالغنم صباحًا، فتبعهُ الغَاوِي ذاتَ يومٍ حتَّى أصْبحَ في منْأىً عن القرية، فتعارَك معهُ وقتلَه، ثمَّ أرداهُ من شاهقٍ ليُوهِمَ النَّاس أنَّه تردَّى فسقطَ ميِّتًا.

غادرَ (أبو سند) مسْرحَ الجريمة، وكأنْ لمْ يكُن شيئًا.

شاهدَ ثلاثةٌ مِنَ الرُّعَاة الحَداةَ والنُّسُور حائمةً فوق المنْطقة، فأدركُوا أنَّ هُناك جُثَّة تجذبُ هذا العددَ من الطُّيور الجَارِحة، فظنُّوا أنَّها شاةٌ تردَّت من شاهقٍ، أو مَا شَابه ذلك.

تقدَّموا قليلًا فإذا برجلٍ ميِّتٍ ففزعوا، وأبْلغُوا الجِهَات المُخْتصَّة، فأوْدعتِ الثَّلاثة في السَّجن، فصارُوا بين أمْرَيْن كلاهُما مُرٌّ: إمَّا أنْ يظهرَ القَاتِل، أوْ يعترفُوا بقتلتهم الشَّنيعة!

ومضى على سجنهم ثلاثُ سنواتٍ وهم رهنُ التَّحقيق، فلم يثبُت عليهم شيء.

وبعدَ مُضِيّ الوقت خرجتْ الأرْملةُ مِنْ عِدَّتها، ونسيَ النَّاس الخبر، فتقدَّم (الغاوِي) لزوجة المغدُور به فرحًا بوعدها له.

ولكنْ حدثَ ما لمْ يكُن في الحِسْبان؛ فنهرتْهُ وقالت: إنِ اقتربتَ مِنّي، أوْ فكّرتَ في الارتباط بي سأُخْبِرُ عنْكَ!

فَفَرِقَ قلبُه، وخشيَ أنْ ينفلتَ لسانُها بالسّر، فلا يعْلَمُ بالقَاتِل الحقيقيّ سِوَاهَا، ولمْ يعُد أمَامَه سوى إخفاءُ الشّاهدِ الوحيدِ على جُرْمِه.

فترقّبها يومًا وهي في جَوْف دارها، في ساعةٍ مُتأخّرةٍ من اللّيل، كانَ يراهَا مِنْ شُقوقٍ في البَاب المصْنُوع مِنْ جُذوع العَرْعَر، وكانتْ مُلتصقةً ببعضها البعض، فيسهلُ رؤيةُ ما ورائها.

فادخلَ فوْهَة بُنْدُقيّته من بين شُقُوق البَاب، وأطلقَ عليها رصاصةً قاتلة؛ لأنّ المسافة قريبة، والهدفُ واضحٌ، بعْدَها أطلق العَنَان لسَاقيْه، وأخْفَى نفْسَه.

اجتمعُ النّاس عنْدَ مَصْدَر الصّوت، فوجدُوها تنْزِفُ دمًا، ولم تكن الإصِابةُ قاتلة، فقالتْ في الحال: خَصْمِي (أبُو سند)، وهو قاتلُ زوجي، فزُجَّ به في السّجن، وبدأ التّحقيق في القضيّة من الصّفر.

مضتْ ثلاثُ سنواتٍ على الجريمة، ولم يعترف القَاتِلُ بقتْله، فصدّق الجميعُ بأنّه مُفْترىً عليه، فحانَ الأوانُ لإطلاق سراحه، فلمْ يَثْبُت عليه شيء.

استدعاهُ الضّابط، وأنْطقَ الله لسَانَهُ بكلماتٍ تكشفُ سرَّ الحقيقة، إذْ قالَ له: أتى أمْرُ إطلاقُ سراحِكَ، ولمْ يَثْبُت عليك شيء، فأنتَ الآن بَرِيءٌ من جريمة القتل، أمّا في الآخرة فلا مَهْرب لك، فهناك قتيلٌ تحت الثّرى، وفي السّجن ثلاثةٌ ينتظرون الحقيقة، وأنتَ نجوتَ في الدُّنيا، أمّا الآخرةٌ فلَا نجاةَ لك إلّا بالخَلاص، والأمرُ اليك.

أطرقَ (أبو سند) رأسَه، وأدركَ أنّ القَرار بيده، وأنّ اللهَ أنْطقَ الضّابط بالحقّ، فتأمّل وتفكّر، فعرف أنّ النجاةَ في الصِدْق، وأنّ الحسَاب لا مفرّ منه، وأنّ حقوقَ النّاس مبنيّةٌ على المُشاحّة.

فقال وعيناهُ تذْرفان: صدقْتَ وربِّ الكَعْبَة، نَعَمْ أنا الجَانِي، فأعادَهُ الضَّابط للسّجن، وفتح ملف التَّحقيق مِنْ جديد، وحضرَ أبناؤهُ لزيارته، فهَالَهُم الخَبَر، واتَّهموا والدهم بالجُنون، وأنَّه لا يَعِي ما يقولُ مِنْ أثَر السّجن.

فردَّ عليهم قائلًا: لقد كنتُ بلا عقلٍ حين أنْكرت، والآن عادَ لي عَقْلي، ولا مفرَّ من الله إلَّا إليْه.

وكانتْ العلاقة بين أبناء الجَانِي والمَغْدُور به علاقةُ صداقةٍ ومودَّة، ولكنْ صُعِقَ الجميع بالخبر!

وطلبَ أبناءُ القَاتِل مِنْ أبناء المَقْتُول العَفْو، فقُوبلَ طلبُهم بالرَّفض وقالوا: لا نحتملُ أنْ نرى قاتلُ أبينا حُرًّا طليقًا، ولكن يبقى في السّجن حتَّى يتوفَّاهُ الموت، واتَّفق الجميعُ على ذلك.

أمَّا وليُّ الأمْر فقدْ رفضَ الصُّلح، فإمَّا القصَاصُ وإمَّا العَفْو، أمَّا بقاؤُه في السّجن فتكاليفٌ لا تُطيقها الدَّولة آنذاك، فتمَّ القَصَاصُ، وكانتْ عدالةُ السَّماء.

فوائدٌ تربويَّة:

١- خطواتُ الشَّيطان لا ينجُو منها إلَّا من عَصمَهُ الله.

٢- مَنْ يأمن الشَّيطان على نفسه أوْ أبنائه فهو جاهلٌ مغرور، فأنا أثق في أبنائي، ولكنْ لا أثقُ في الشَّيطان، وخوفي عليهم ليسَ لعدم ثِقَتي بهم.

٣- من أطاعَ الشَّيطان في الخُطْوة الأُوْلى فلن يقفَ إلَّا في الهاوية، إلَّا أن يُنْقِذهُ الله.

٤- يستُرُ اللهُ عبْدهُ في كثيرٍ مِنْ زلَّاته، ولكن قتلُ النَّفس مِنْ المُوبقات، وليست هي النِّهاية، بل يسوقهُ الشَّيطان لخُطُواتٍ أُخرى.

٥- مَنْ أحبَّه اللهُ وعلِمَ صدْقه أعَانَهُ على فعل ما يُرضِيْه.

اليمين الغموس

اعتادَ الناسُ في القرية أنْ يَخْطبَ الأبُ لابنه زوجةً صالحةً تنالُ على إعجابه، وليس هذا غريبًا، لكن الغريبُ أن تنالَ إعجاب أهله؛ فهم لا يُريدونها زوجًة فحسْب، وإنَّما يدٌ عاملةٌ في الحقل، وعضوٌ فعَّال في بناء الأسرة، وعونٌ في أعمال المنزل وخارجه كمساهمتها في رعي الغَنم، وليس للابن منها إلَّا حصَّته كزوج، أمَّا بقيةُ منافعها فمتاحةٌ لجميع أفراد الأُسرة.

بشَّرَ الأبُ ابنه بخِطْبَة فُلانة زوجةً له، وكُلُّها بضعة أشهرٍ ويكونُ الزَّواج، تقبَّل الولدُ خبر خِطْبته دون اعتراض، أوْ إبداء رأيٍ، أوْ سُؤال، وكأنَّه بُشّر بهديةٍ من السُّوق لا خِيَار لهُ فيها.

وهذا النَّوع من الزَّواج تُكْتبُ له الدَّيمومة، ويُنتجُ رجالًا ونساءً يكنَّ نواةً لأسرةٍ أخرى، وهكذا دواليك.

ولا يكونُ في مُخيّلة الزَّوج أوْ الزَّوجة صورةً ذهنيَّةً محدَّدةً لشريك العُمْر، ولنْ يكونَ اختيار الزَّوج لزوجته أوْ العكس، أفضلُ من اختيار الوالدين في منْظورهم المُتوارَث.

ولديهم معايير تأتي بعدَ الجَمَال وهي: أن تكونَ عريقة النَّسب، حُرَّةً عفيفةً، وأنْ تتحلَّى بصفاتٍ يرغبها كثيرٌ من الشَّباب، وأن تكونَ يدًا عاملة، وراعيةً للغنم، وفلَّاحةً للأرض، ودُوْدَةً ولَودة، فهي جاءت كإضافةٍ فاعلةٍ في الأُسْرة.

ففي ذاتِ يومٍ كانت تلك الفتاةُ ترعى الغنم، وكانَ الفتى قريبًا منها، يبحثُ عن شجرةٍ ليقتطعَ منها عصًا، فلَا يمشي الرَّجلُ في ذلكَ الزَّمان إلَّا وعصاهُ معه كرفيْقة دربه، في حِلّه وتَرْحَاله، يهُشُّ بها على غنمه، ويدافُع بها عن نفسه، ويستعينُ بها على صُعُود الجبال أوْ هبوطها.

اقتربَ الفتى من زوجة المُستقبل، وتجاذبَ معَها أطراف الحديث، وقدْ عقدَ عليها، ففي حُكم الشّرع تكونُ زوجتُه، أمّا في الأعراف فلَا يقربُها حتّى يدْخلَ عليها، ويُعْلنُ الزّواجُ على الملأ، وإلّا فالعاقبةُ وخِيْمة.

ازادَ قُربه منها، وراودَها عن نفسها فامتنعت، ولكنّه أغراها بمعْسول كلامه، فأقْنعها بكونها زوجةً له بمُجرّد ما عُقدَ عليها، وأنّها حلالُه بعقْدٍ غليْظ، وكلاهُما جاهلٌ بعاقبة الأمور ومآلاتها، ثمّ عادَ كُلٌّ منهما إلى أهله، وكأنّ شيئًا لم يكن.

مضتْ الأشهرُ فتبيّن حملُها، وطار عقلُ أُمّها حين علمت، فأخفيَا السّرَ عن الجميع، حتّى يقضي الله أمرًا كانَ مفْعُولا.

وكعادة بعض النّساء اللّواتي لا يسْتطعْنَ حمل السّر، ولا يهدأ لها بالٌ حتّى تُفْشيه، فشاعَ الخبرُ بين النّاس، وهُم بين مُصدّقٍ ومُكذّب، والفتاةُ طريحة فراشها، لا تقومُ ولا تتحرّك، تدّعِي المرضَ حتّى لا تظْهر عليها علاماتُ الحمل، وهُو غيرُ مقبولٍ عُرفًا.

فسمعَ الجميعُ بخبرها إلّا أبَاها، وذات يومٍ بعدَ صلاة الجماعة، اجتمع أهل القرية كعادتهم بعد الصّلاة يتبادلون الأخبار، ويتجاذبون أطراف الحديث، فحصلَ نقاشٌ حادٌّ بين والدها وأحدُ أفراد القرية، فما كان منه إلّا أن قال لأبيها: اذهبْ لبيتك وتفقّد أهلك، ودعْ عنك المثاليات، ونَقْد الآخرين.

فكلمته هذه تُقطعُ دُوْنَها الرّقاب، وتطيرُ الرُّؤوس، وتسيْلُ الدّماء، فأدرك والدها أنّ هاته الكلمةُ الكُبّار لا تخرجُ من فِيْه اعتباطًا، فالنارُ تُخلّف الرّماد.

وفي طريقه إلى بيته أخذَ يُقلّب كلام الرَّجل في نفْسه، فراحَ يتفقَّدُ أهله، وتذكَّر أنَّ له بنتًا كانت تتمتَّع بصحةٍ وعافية، ولكنْ في ظروفٍ غامضة أصبحت مُلقاةً على الفِرَاش لا تُغادره، فشكَّ في أمرها.

هرع إلى بيته، فأخذ زوجته في جانبٍ مُنْزوٍ من البيت، وطلب منها حقيقة ما يُشاعَ بين النَّاس؟

فاعترفت زوجته بكُلّ ما حصل، وأنَّ ابنته حامل من زوجها، فسأل ابنته ليتأكَّد، فقالت بما قالتهُ أُمُّها.

فذهبَ إلى والد الفتى وأخبرهُ بالعِلْم، وأنَّ الواجبَ أن يُتدارك الخبر، وتُعجَّلُ مراسمُ الزَّواج.

صُعِقَ والدُ الفتى، وأنكرَ أنْ يكونَ الفاعلُ ابنه، وطلب منه البحثُ عن الفاعل الحقيقي بعيدًا عن بيْته! فحاول أبوها أنْ يُعالج الموقف، وأنْ يعترف الفتى بفعْلته، ولكنْ دونَ جدوى.

عند ذلك شاعَ الخبر في القريةِ كُلّها، وبعد صَلاة الجماعة تحدَّث والدُها قائلًا: بلغنِي خبرٌ قد بلغكُم جميعًا، وكنتُ آخرُ من يعلم، فطلبتُ من رحيمي أنْ ينتهيَ الأمرُ بدُخولهما، ونتفادى الحرج، فمَا كان منه إلَّا أنْ أنكرَ، فالأمرُ بين أيديكم!

فإمَّا أنْ يعترفَ بفعْله ويأخذ زوجَه بشرع الله، وإمَّا أن يُنكر ذلك، وأنا أقبلُ يمينه، وأُنفِّذُ حكمَ الله في ابنتي، وكان هذا المعْمولُ به، فلَا تحاكمَ إلَّا للقبيلة.

أصرَّ الوالدُ على إنكاره، وكانَ له سبعةٌ من الولد، فقال أكبرهم لأبيه سِرًّا: لقدْ علمتُ مِنْ أخي بفعْلته، ولو تداركنا الأمرَ في الدُّخول لكانَ الأوْجبَ في حقّنا، فغضب والده، فزمْجَر وأرْعَد، ونهرَ ابنه، وطالبه بالكِتمان.

وكانَ حكمُ العُقلاء في القرية، أنْ يُنكرَ أبو الفتى حدوث الفعل من ابنه، ويوثّق إنكارهُ باليمين، فَقَبِلَ بذلك.

حاولَ الكبيرُ من أبنائه أنْ يُثني والده عن الإنكار، وأنْ يقبلَ الواقع، وألّا يُكلّف نفسه بيمينٍ غَمُوس، ولكن دُون جدوَى.

فردَّ على ابنه قائلًا: "نُعْطِيْهم قَسَمَنا من ربّنَا عِنْدَ العواد[١٩]"، فيطالبُ عُقلاء القبيلة أنْ يكونَ الحِلْفُ مِنْ عِنْدِ القُبور؛ ليتراجعَ الحالِفُ إنْ كانَ كاذبًا.

وكانَ المُتّبعُ أنْ يحلفَ الأبُ أوّلًا، ثمَّ بنوهُ مِنْ بَعْدِه، وكانوا سبعةً مِنْ بينهم الفاعِل، وأخوه الأكْبرُ والأعْلمُ بالخبر، فمَا كانَ منه إلّا أنْ يَحْلفَ كمَا حلفَ أبوهُ مِنْ قبْل.

وكانَ فَقِيْهُ المسجد يُملِي عليهم ألفاظ اليمين، وكانَ السَّامعُ لها يقشعرُّ بَدَنَه فكيف بالحالِف؟!

حَلَفَ الأبُ وتبِعهُ أبناؤه السَّبعة، وبذلك أبعدُوا عن أنفسهم التُّهمَة، وعادَ أبو الفتاة لابنته فأطلقَ عليها النَّار، وقتَلها ظلمًا كما يفعلُ النَّاسُ في الجاهليَّة.

وفي اليوم التَّالي مات أحدُ الأبناء الَّذين حلفوا كذبًا، وفي اليوم الَّذي يليه ماتَ الثَّاني، وهكذا بقيَّةُ السَّبعة كُلُّ يومٍ يموتُ منهم واحد، والأبُ يرى ويسمع دوْن أنْ يهتزَّ له قلب!

وفي يوم السُّوق دخلَ أبوهم راكبًا أتَانَه، فلمَّا وصلَ عند القبر الَّذي وقفُوا عليه لأداء يمينهم الغَمُوس، قذفت به الأتَان إلى أعلى، فسقطَ على شَاهِدْ القبر، وكأنَّه تردَّى من شاهقٍ، فماتَ في مكانه.

فنطقتْ عدالةُ السَّماء، وظهرتْ للنَّاس براءة الفتاة، وأنَّ خطيبها وأهلهُ كانوا ظالمين.

---

[١٩] العواد: اسمٌ لمقبرة القرية.

فوائدٌ تربويَّة:

١- خُطواتُ الشَّيطان قد تُزيّنُ لكَ فعلَ بعض المُبَاح الَّذي لا يقبلُه النَّاس؛ ليُوقِعَكَ في جُرْمٍ أكْبر.

٢- من مَكْر الشَّيطان وكيْدِه أنْ يعميَ بصيرتُك؛ فتغيبُ عنك الحكمة، ويحْلُو السُّوءُ في عينك، وتتوالى بعدها خُطُوات الشَّيطان.

٣- قَدْ ينتقمُ الله عاجلًا، وقَدْ يُؤجّل انتقامه لحين، وكلُّ ذلك بحكمةٍ يَعْلمُها.

كتابُ التَّوحِيْد

كنتُ طالبًا في الصَّف الثَّالث الابتدائي، ولا أذكرُ مِنْ هذا الصَّف إلَّا هذه الحَادِثة، ولا أذكرُ من الصَّف الثَّاني شيْئًا، وأمَّا الصَّف الأوَّل الابتدائي فأذكرُ منه مَوْقِفَين فَقَط.

أحدهما: دخلَ أبي -رحمة الله عليه- وكانَ مُسْتَخدمًا في المدرسة، وقدْ كانَ المُسْتَخدمُ آنذاك تربويًّا أكثرُ مِنْ بعض المُعلّمين، وكانَ لأبي بصمتُه الخاصَّة، وأثرُه ممتدٌّ حتَّى على المدير والمُعلّم، وكثيرًا مَا يدْخلُ في إصلاحِ ذاتِ البَيْن بينهم.

فدخلَ أبي ومعهُ المدير، وكان مُعلّم الصَّف واقفًا معهم، وعريفُ الصَّف كذلك، وكانَ طُوله قريبًا من طُول المُعلّم، ويبدو أنَّ العريفَ كتبَ أسماءُ المُشاغبين في القائمة، وكان اسمي مِنْ بينهم.

والَّذي أذكرهُ أنَّ والدي -رحمه الله- دافعَ عنِّي، ونهرَ العريف نهرةً، وكأنَّه يقول فيها: ابني عليٌّ خطّ أحمر لا تَقْربه!

فهذا الَّذي أذكرُه هل كان حقيقةً، أمْ خيالاً، أمْ تمثيلًا لا أعلم، كما لا أعلمُ ما الَّذي سبَقها، وماذا تَلَاها؟!

أمَّا الموقُف الثَّاني: فكانَ في الصَّف الأوَّل الابتدائي عام ١٣٨٢هـ، فبينما كُنَّا في الصّف إذْ بجدّي أحمد يُطِلُّ علينا برأسه مِنَ النَّافذة، ويسألنا أينَ المُعلّم؟ وأينَ العَرِيف؟ ثمَّ قالَ: إيَّاكم أن تصلني شِكايةٌ من عليّ!، فعرفتُ أنَّه أتى ليدافعَ عنّي، ولا أذكرُ ماذا قال، وما سببُ مَجيئه، ولكنّي علمتُ فيما بعد أنَّ والدي وجدي اعتادا على أنْ يخبرَ بعضهم بعضًا بأخْبار يومهم، وعندما يعود أحدهما إلى البيت يبدأُ في سرد أخبار يومه، ثمَّ يردُّ عليه الآخر.

فأتوقَّعُ أنَّ أبي أخبرهُ بخبر ذلك اليوم الَّذي كُتبَ اسمي فيه ضمنَ قائمة المُشاغِبين.

أمَّا حادثة الصَّف الثَّالث: فدخل أبي -رحمه الله- الصَّف لغرضٍ ما، وبالمرَّة سأل مُعلمي (نجيب) -رحمه الله- عنّي؛ لعلَّه يسمعُ منه كلمةً تُسعدُه.

فردَّ عليه بقوله: عليٌّ لمْ يُحضر كتاب التَّوحيد من أوَّل العام، ومرَّ شهرين على الفصل الدّراسيّ، والكتابُ يحتوي على مادَّتي التَّوحيد والفِقْه.

فتعجَّب والدي من ردّه، فانطلق لمدير المدرسة وقال له: يا أُستاذ، ما تقولُ في طالبٍ لمْ يُحضِر كتابهُ من أوَّل العَام؟!

فقال: وكيف يحصلُ هذا؟ وأينَ المُعلّمُ عنه؟ وأين وليُّ أمْره؟ ولِمَ لا يتجاوبُ مع الاستدعاء؟!

حينَها أخبر والدي المديرَ بما حصل، فاسْتدعَى المُعلّمَ وعاتبَه بقوله: كيف يدرسُ الطَّالب عندك، وليس معهُ كتاب؟ وأبوهُ معَنَا في المدرسة، وأنتَ لمْ تتَّخذ أيَّة إجراءٍ حِياله!

فتمَّ نقلي إلى فصلٍ آخر، وكانَ تركيزُ الأساتذة عليَّ ملحوظًا، فإذا قصَّرتُ في أدنى واجباتي وجدتُ حظّي من الضَّرب والتَّوبيخ، بعدَ أنْ كنتُ في أمانٍ ودَعَة، ولن أُفسّرَ سببَ الضَّرب والتَّركيز!

فوائدٌ تربويَّة:

١- من واجب المُعلّم السُّؤال، ومتابعةُ تلاميذِه، وتفقُّد أحوالهم.

٢- عندمَا يكونُ وليُّ أمر الطَّالب أحدُ منسوبي المدرسة، فيعتقدُ أنَّ الأساتذةَ يحرصون على تحصيل ابنه حرصًا لا يحتاجُ معه للمُتابعة والسُّؤال، وهذا خطأ.

حِيْلةُ التَّخلُّص مِنْ ريالين

يقولُ والدي -رحمه الله-: أخْبرني صديقُ جدّك من غَامِد بقوله: يا بُنيَّ كُنَّا لا نجدُ الرّيال أعوامًا، وكانت العُمْلة آنذاك ريالٌ مِنْ فضَّة عربي، أوْ فرنسي وكانَ أغلى ثمنًا.

وكانَ علينا دَيْنٌ -ريالين- للجماعة في النيبة[٢٠]، لمْ نُسدّده مِنَ العَدَم، وكُنَّا في كُلّ جُمُعَة نتداولُ قضيةً بعد الصَّلاة.

وفي أحد الجُمُعات اتَّفق الجماعة على أمرٍ قالوا فيه: إنَّ لجماعتنا عند فلان وأخيه ريالين، ونحنُ في كل جُمُعَة نطرحُ هذه القضيَّة ولَا نَبُتُّ فيها، فأقترحُ عليكم أنْ تكونَ هذه الجُمُعَة فاصلة؛ إمَّا أنْ يُجبَرا على السَّداد، وإمَّا العفْو عنهما؛ فلا ننشغلُ بهما في القَابِلة.

وطريقة السَّداد تكونُ من أحد الأثرياء مُتصدّرًا بقوله: عِنْدِي السَّداد، لفُلان وفلان الرّكيب الفُلاني[٢١]، فلا تقربَانه حتَّى يتمَّ السَّداد، فيكونُ مرهونًا عند صاحب الحقّ، فيزرعُه ليحصلَ على حصاده، حتَّى يتمَّ لهُ سدادُ دينه، إمَّا جنايةً من المحصول أوْ نقدًا، ثُمَّ يُعيد لهم الرَّكيب، وكان هذا ديدن الرَّأسماليين، وأصْحابُ القَرار في القرية.

فسيْرُ الخُطَّة كالآتي: يُطرحَ الموضوع أولًا، فيصرُ الجماعة على السَّداد ثانيًا، فيتكفَّلُ فُلان بالسَّداد مُقابل رهْن الرَّكيب ثالثًا.

وهذا يعني حِرْمانهم من محصول الرَّكيب، وهو المصْدرُ الأساس لقُوْتِهم، وعليه فسيعيشون في ضنْكٍ مِنَ الرزق.

وفي المُقابل، في القرية فريقٌ يميلُ لمصْلحة الرَّجلين، ويشفقُ عليهما، جاءوا لهم بحيْلةٍ واتَّفقوا عليها.

---

٢٠ النيبة: ذبيحة تقدَّم للضّيف باسم القرية، يُسهم في ثمنها أفراد القرية، يقول الشّاعر بن ثامرة: **"بعضهم تحرج عليه النيبة ما يقدر يجلّها"** أيْ يُذكّيها.

٢١ الرَّكيب: أرضٌ زراعيَّة تُزرع فيها الحِنْطَة

فاتَّفق الشَّقيقان على أمرٍ بمعيَّة بعض أفراد القرية ممَّن يميلُ لصفِّهم، فصلَّى الجُمُعة كلُّ واحدٍ منهما في طرفٍ من الصَّف؛ ليكونَ بعيدًا عن أخيه، وبعد انقضاء الصَّلاة نُوقشت بعضُ القضايا السَّاخنة.

فوقفَ المُتحدّثُ قائلًا: يا معشرَ أهل القرية، علمْتم بأمْر دَيْنَنا عند فلانٍ وأخيه، مضى عليه عامٌ ولمْ يُسدّد، وهُما يؤجّلان من موسمٍ لموسم، فها هُو موسم الحج قد انقضى، ولم يُتمَّا السَّداد، وأنتم في كُلّ مرّة تطرحون موضوعنا ولكن بدون فصْل، وأرى أنْ يُحسمَ اليوم، والذي سيُسدّد مقابلَ رهْن الرَّكيب جاهزٌ للمبادرة.

فنهض أحدُ الأخوين يردُّ على المُتحدّث قائلًا: صدَقْت، للجماعة عندنا ريالان لا نُنكرهما، والمُدَّة طالت ولمْ نُسدّد، وأخلفنا الموعد أكثرَ من مرّة، والسَّبب أخي هذا، قلتُ له: نبيعُ مِنْ البَلاد[٢٢]، أو نرهنُ أحدها ونُسدّد الجماعة، لكنَّه رفض.

فقفزَ أخوهُ من الطَّرف الآخر، يرغي ويزبد قائلًا: هذا اقتراحي، وأنت الّذي رفضت، والآن تُقلّب الأُمور، وتُخطّئني أمامَ الجماعة! فوالله الّذي لا إله غيره، لإنْ أمسكتُ بكَ لأضربنَّك بهذه الجُنْبيَّة؛ تأديبا لكَ، فاستلَّ جُنْبيَّته هاجمًا على أخيه.

فردَّ الأخ بقوله: بل كلامي هو الصَّواب، وأنت مَنْ يرفضُ السَّداد، ولئن تمكَّنتُ منكَ لأُقطّعنَّك إربًا، فانطلقَ كالأسد هائجًا نحْو أخيه ليقتُله كمَا زعَم.

فانقسمَ أهلُ المسجد فريقين: أحدُهما يُمسِك الأوَّل، والآخرُ يُمسِك الثَّاني، وكُلٌّ منهما يريدُ ذبْحَ الآخر.

فصرخَ واحدٌ مِنْ أصْحاب الحقّ قائلًا: لا تقتتلا، عفَا الله عنكُما، لا نريدُ منكُما شيئًا، فردَّد الجميعُ لا نريدُ شيئًا.

---

[٢٢] البِلَاد: المقصود بها الأراضي الزراعية.

ولكنَّ الشَّقيقان لا يرغبان في إنهاء الحِيْلة بهذه السُّهولة، فيئسَ الجماعة من تَهْدِئتهم، فجعلُوا كُلَّ واحدٍ منهما يبيتُ في منزلٍ طرفَ القرية، تحتَ الحراسة المُشدَّدة؛ حتَّى لا يقتلَ أخيه، ويضعُ الجماعة في مَوْقِف غير مُشرّف بسبب ريالين!

وكانت وفودُ الصُّلح تتنقَّلُ بينَ الشقيقين، وكلاهُما مُصرٌّ على رأيه، فاضطرّ الوفدُ للكذب عليهما، فراحوا للأوَّل وقالوا له: أخوكَ تنازلَ وطلب العفوَ منك، فكُن خيرًا منه، وفعلوا الأمر ذاته مع الثَّاني.

أمَّا الشَّقيقان فأخوفُ ما يَخافانه كشفُ حِيْلتهم أمامَ الجماعة، ثمَّ لا يُصدّقونهم بعدها ألبته.

وبجهدٍ كبيرٍ اقتنعا بكلام الوفْد، وبعدَ أُسبوعٍ في يوم الجُمُعة تحديدًا، قبلَ الأخوين الصُّلح، ولكنَّ حقدهما لا يزالُ ظاهرًا للجماعة؛ حتَّى يطمئنًا على أنَّ الخُطَّةَ نجحت في إسقاط الدَّيْن.

وفي الجُمُعة التَّالية تمَّ التَّنازُل والصُّلح بينهما، ونجحت خُطَّتهما.

فوائدٌ تربويَّة:

١- تفرضُ الظُّروف على الإنسان أحيانًا ما لا تشتهيه نفسه، ولكنَّ الحاجةَ مُلِحَّة.

٢- كلمةٌ خبيثةٌ قد تتسبَّبُ في نُشوب كارثة، وكلمةٌ طيّبةٌ قد تعيدُ المياه لمجاريها.

٣- بساطة النَّاس وصدق نواياهم قدْ يُمرّر عليهم مثل هاته الحيل؛ لتُحقّق منفعة أكبر.

٤- الحيلة تُعالَج بالحيلة، والفكر يُعالجُ بالفكر، والشَّر يُزاحَمُ بالخير.

يبيعُ أخوهُ في المَشْرِق

أخبرني والدي عن أخوين شقيقين من أصحابه، كانا يعيشان معهُ في القرية، ونقلَ لي عن أحدهما قائلًا له: مرَّ بنا قحطٌ وجوع لدرجة أنْ يبيتَ الواحدُ منَّا ليالِيَ بدون طعام، فقال لي أخي: نحنُ في حالٍ لا يخفاك، وقد بلغ بنا الجُوع ما بلغ!، فإنْ نحنُ صبرنا فالأطفال لا يصْبرونَ على هذا.

فقلتُ لأخي: وماذا في أيدينا لنفعل؟، وكانَ أسمرَ البشرة لدرجة أنَّ مَنْ يرانا لا يُصدّق بأننا أشقَّاء!، فقالَ لي: ما رأيُكَ أنْ تبيعني، وتشتري بثمني ما تسدُّ به رَمَقَ هؤلاء الصّبية؟!، فبكيتُ مِنْ هول الصَّدمة، فقلتُ: وكيف أبيعُكَ وأنتَ حُرّ؟!، فقال: أطعْنِي ونفّذ ما أقولُ لكَ، ولن يضيّعني الله، فرضختُ لكلامه؛ لأنَّ الحالَ بلغ بنا مبْلغًا جعَلَنا نقْبلُ فيه أسوأ الحُلول!

فذهبت أنَا وأخي حتَّى توغَّلنا في المَشْرق، وقطعنَا صحاريَ ونفودَ لا حياةَ فيها، فوجدنا في طريْقنا قومًا يعيشون على رعْي الإبل وخيراته، وكنَّا في ضيافتهم ثلاثَ أيامٍ كعادة العرب.

وبعدَ أنِ انقضتْ أخبرناهم بحالنا فقلتُ: أُريدُ بيع هذا العَبْد، فلم يَعُدْ لي به حاجة، وإن كنتُ ضنينًا به، إلَّا أنَّ ظروفي أجبرتْني على بيْعِه!

فطارُوا بالخبر فَرِحين، وأبْدَوا لي حاجتهم إليه، فاتَّفقنا على مقابلٍ مُرْضٍ، فقبضتُ المال ورحلتُ عنهم، إلَّا أنَّ قلبيَ بقيَ فيهم مُعلّقًا!

أمَّا أخي، وما أدْراكَ ما أخي!، يقولُ لي: جلستُ عندهم أخدمُهم، وأرعى إبلَهم، وكانوا يرقُبونني في كُلّ يومٍ من بعيد؛ ليتأكّدوا من صِدْق حالنا، وخوفًا مِنْ هروبي.

فكنتُ أتصرَّفُ بتصرفاتٍ تجعلُهم يطمئنونَ لي أكْثر، فكنتُ آكل بطريقةٍ شَرِهَة حتَّى يقولوا: وجدَ الطَّعام بعْدَ جُوعٍ فلا نظُنُّ أنَّه سيهرُب،

وكنتُ أُلبّي مطالبَهم بكُلِ حُبّ ورضَا، بلْ إنَّني أعْرفُ طلبَهم وأستبقُ لإنْجازه قبل أنْ يطْلُبوه؛ ليتمسَّكوا فيَّ وفي خدمتي.

وكنتُ أغيبُ عنهم في المَرْعَى لياليَ وأيَّام، وأعلمُ أنَّهم يُراقبوني، فأُشْعُرهم بأنِّي لا أعلمُ بذلك، فلما شعرتُ باطمئنانهم لي لدرجة زوالِ شكّهم فيَّ، وعرفتُ إبِلَهم وحلالهم واحدةً واحدة، ولم يعد أمامي إلَّا انتظارَ الفُرصة المُناسبة للرَّحيل عنهم.

فلما حانَ وقتُ الرَّحيل، اخترتُ من حلالهم ناقةً تسرُّني في رحْلتي، ولم يمض شهرٍ على غيابي حتَّى تفاجأ أخي بي، وأنَا قائمٌ عنده، فتمَّت المُهمَّة على أكمل وجه، أنقذتُ أهلي من الموْت، ونجوتُ بفضْل الله من الرّق.

فوائدٌ تربويَّة:

١- الفقرُ وقلّة ذات اليد تُضعف الإنسان، وتفقدهُ معنى السَّعادة.
٢- قد يزدادُ الكربُ على المرء فيحتالُ بما لا يُعْقَل ويُصَدَّق.
٣- الجوعُ والفقرُ والجهلُ أعداء القِيَم والمُروءة.

عَفَارِمْ عَلَيْك سِكَّة مَاشِيَة

يقول والدي: كانَ هناكَ رجلٌ مُعْدَم، ضاقت به الحال، فلا يجدُ قوتَ يَوْمه، ولا يعلمُ طريقةً توْصله لمالٍ يُغنيه عنْ ذُلّ السُّؤال.

فمرَّ به أحدُ المارّة وسأله عن حاله فقال: أتيتُ بصيدٍ وأهديتُه للسُّلطان، وظننتُ -كما قيلَ لي- أنَّني سأحصلُ على مبلغٍ يُغنيني، ولكنَّه كافأني بقوله: "عفارم عليك" وأنَا لا أَعِي معنَاها، وعندما سألتُ عنها قيل لي: إنَّها كلمةُ شُكْر، فقلتُ لوزيره: اشفعْ لي بشيءٍ من المال لأقضي به حوائجي، فأنَا لمْ أحصل من السُّلطان إلَّا على كلمة "عفارم عليك" فردَّ عليَّ الوزيرُ بقوله: تكفيك هذه، فهيَ سِكَّة مَاشِيَة، فقال له السَّائلُ وهو يستمعُ لحديثه: أبْشِر لقد فُرِجَت.

فأخذهُ إلى مقهى يجتمع فيه تُجَّار البلدة، وطلبَ مِنْ صاحب المقهى إحْضَارُ عددٍ من المقاعد، وتجهيزُ القهوة والشَّاي، فالضَّيفُ صاحبُ منْزلة، وطلبَ منه ألَّا يتحدثَّ بكلمة واحدة، وأنْ يترك الحديثَ والتَّدبير له.

أدهشتْ الضَّيافة تُجَّار البلدة، فكثرةُ أباريق الشَّاي والقهوة، وضيافة كُلّ القاصدين، وإكرامُ مَنْ يجلسُ بالجوار، أمورٌ غريبةٌ لم تكنْ مِنْ قَبْل.

فتساءلَ التُّجار عنه فلمْ يعرفهُ أحد، فاستدعى أحدهم مُرافِقَه وسأله عنه، فقال: ألَا تعرفونَ فلانًا التَّاجر؟ فقالوا: لمْ نسمع به، فعرَّفَ به قائلًا: هذا تاجرٌ قدمِ إلى مدينتكم للمرَّة الأُولى، ولديه بضاعةٌ يريد أن يُشرفَ على بيعها بنفسه؛ ليتأكَّد من صِدْق عُمَّاله القائمينَ على أعْماله، والبضاعة ستصلُ خلالَ أُسْبُوع، فهيَ في عَرْض البحر الآن، وفيها خيرٌ كثير.

تسابقَ التُّجار للجلوس معه، والسُؤال عن بضاعته، فطمعُوا في الحصول على شيءٍ منها.

وكان الحلُّ والعَقْدُ معَ الوسيط، أمَّا صاحبنا فراحَ يُقلّب عينه، فلا يعي بما يدورُ حولَه، لكنَّه سلَّم نفسه للوسيط، وهو لنْ يخسرَ في ذلك التَّفاوُض شيئًا، فهو في نعيمٍ مُقيم، أذهبَ جُوعَه وظمؤُه، وأصبح في رغدٍ من العيش بعدَ جوعٍ مسَّه.

وكان الوسيطُ يستلمُ العرابين من التُّجار مقابلَ حجز طلباتهم، وضمانَ توفُّرها، فطلبُ من التَّاجر الوهميّ أن يقول لكُلّ تاجرٍ يدفعُ عُربونه: "عفارم عليك، سِكَّة ماشية".

وبعدَ أنْ جمع مبلغًا مُحترمًا من التُّجار، أخبرهم بأنَّ السَّفينة قدْ غرقت في البحر، وعليهم أنْ ينتظروا الفرج.

فطالب التُّجار بحقّهم، فقال لهم الوسيط: لم يبق لكم شيء، وقد قال لكم التَّاجر: "عفارم عليكم، سِكَّة ماشية"

فتوجَّه التُّجار إلى السَّلطان لشكاية التَّاجر المُحتال، فحضر أمامَ السُّلطان فسألهُ قائلًا: بأيّ حقّ تأخذُ أموالَ هؤلاء، وهكذا بدون مُقَابِل؟!

فقال للسلطان: أعطيتُهم المُقَابل، ولم يبقْ لأحدٍ عندي شيء، فقالوا: لم يُعطنا شيئًا، ولم يكتب لنا كتابًا، وكان يقول: "عفارم عليك، سِكَّة ماشية"

فقال السُّلطان للمحتال: ما هذا الّذي يقولونه عنك؟ فقال الرجل: إنَّها سِكَّةٌ فرضَها شَخْصُكم الكريم، أتذكرُ ما قلتَ لي حينما أهديتكم صيْدًا؟!

فقدْ قلتَ لي بلسانكَ: "عفارم عليك"، وعندما طلبتُ مِنْ وزيركَ مالًا أقضي به حاجتي قال لي: "سِكّة ماشية"، وأنَا تاجرتُ فيها ولله الحمد على فضله، والبركةُ في سِكّتكُم المَجيْدَة.

فأُسقط في يد السُّلطان، وتعهَّد بإعطاء كُلّ تاجرٍ حقَّه، وقال للرَّجل مُوبّخًا: إياكَ أنْ تعودَ لها مرَّة أُخرى، وقدْ أبْطَلْنا هذه السّكّة.

فوائدٌ تربويَّة:

١- القصص الرَّمزية توصل أفكارًا ودروسًا ذاتُ قيمة.

٢- قد تضيق عليك الدُّنيا وتُعجِزك الحِيْلة، فيأتي الفرجُ مِنْ حيثُ لا تحْتسب، وفرقٌ بين من يكونُ جُزءًا من المشكلة، وبين من يكونُ جزءًا من حلّها، فالأوّل لا يرى سوى المُشكلة، والثّاني يرى الفَرج ويُقلّبُ المَخارج.

إعارةُ الضَّمْد

يقول والدي -رحمه الله-: احتاج فلان -أعرفُه- إلى ضِمْدٍ[٢٣]، فذهب لاستعارته مِن رحيمي لحاجته الماسَّة، فردَّ عليه قائلًا: أنا لا أستغني عنه في موسم الحَرْث، وإنْ كانَ لديَّ أكثرُ من ضِمْدٍ لكنَّها مشغولةٌ يوميًّا، ولكن عندي ضِمْدٌ مكسور، لو مررتَ على الصَّانع لجبرَ كسْره، وعملتَ به، فما رأيُك؟ فوافقَ على عرْضه.

وكانت القُرى تحرصُ أشدَّ الحرص على توفير الصُّنَّاع، ففي كُلّ قريةٍ صانعٌ ليسَ من أهلها، وكانت الحاجة إليه في توفير أدوات الحَرْث، وقطع الأشجار، والحَفْر، وصُنْع السّلاح، وغيرها.

والقريةُ الّتي لا يتوفَّرُ فيها صانعٌ تكونُ في حالة احتياجٍ وضَعْف، فلو انعدمَ الأمنُ في يومٍ ما لصعُب عليهم الذَّهاب للقُرى المُجاورة من أجل جلب احتياجاتهم الصّناعيّة.

استعارَ الرَّجلُ الضِّمْد المكسور، وذهب به إلى صانعٍ أخبرهُ بخبره، فوضعَ له مِسْمارًا من حديد ليجبرَ كسْره بمقابل ريالين.

وبعد عامٍ كاملٍ التقى رحيمي بمستعير الضِّمْد، وكان اللّقاءُ في السُّوق فقال: أنَا بحاجة الضِّمْد فلعلك أنْ تأتي به، فقال: ولكنّي أصلحتُه بريالين، فقال له: لكنَّك انتفعتَ به عامًا كاملًا، وأنَا بحاجته.

فعندما أيقنَ أنَّ العَاريةَ لا بُدَّ مِنْ إرجاعها، ذهبَ إلى الصَّانع وطلبَ منه أنْ يُخْرجَ المسمار، فسأله: ولماذا أُخْرجه؟ فقال: اخرجه فحسب.

فقال الصَّانع: أليسَ هذا ضِمْدُ فلان، وجبرتُه لك بريالين قبل سنةٍ من الآن؟! فقال: بلى، ولكنَّه يطْلبه منّي الآن.

---

٢٣ الضِّمْدُ: مصنوع من الخشب، ناعم الملمس، يوضع على رقبة الثور، ويجمع بين ثورين، للحرث والدّياس والسّقاية من البئر.

فقال الصَّانع: وأنَا لنْ أخرجَ المِسْمار، وإنَّما سأعيد لك الرّيالين، وأنتَ أعِد الضّمْد إلى صاحبه، واشكُره على صنيعه.

لكنَّ اللُّؤم الّذي يتخلّقُ به يأبى عليه أنْ يُعيدَه سالمًا، فعندما رفض الصَّانعُ إزالة المسمار تولّى المُهمَّة بنفسه، وأعادهُ مكسورًا كمَا كانَ مِنْ قَبْل.

فوائدٌ تربويَّة:

١- البخيلُ اللّئيم يُحسنُ الاستجداء وطلبَ العَارة، ولكنَّه يستثقلُ إعادتها.

٢- الكريمُ السَّخيُّ لا يردُّ سائلًا، ويجودُ بما يتيسَّر له.

٣- الشَّهم وإن كان حِرَفيًّا، ومنزلته الاجتماعية مُتواضِعَة، إلَّا أنَّه لا يقبلُ الدَّناءة، ويأنفُ منها.

نَقْلُ الحَصَى مِنَ الجَبَل

يقولُ والدي -رحمه الله-: بعدَ أن منَّ اللهُ عليَّ برزقٍ من خلال عملي بالطَّائف، جمعتُ مبلغًا من المال، وكُنتُ أرسله لجدّك ما بين فترةٍ وأُخرى ليسدَّ به حاجته، وعندما رجعتُ قرَّرتُ أن أبنيَ منزلًا، فأخرجَ لي جدُّكَ صُرَّةً من المال -الفضَّة- الَّذي كنتُ أُرسله له، فقلتُ ما هذا؟ فقالَ: مالُك وحلالُك، استعن به على بناء دارِك.

فقلتُ: أرسلتهُ لك لتصرفه كيفما تشاء، فقال: الحمد لله لم أحتج إليه، فأصابني حزنٌ شديدٌ لا يعلمه إلَّا الله، فكنتُ أظُنُّ نفسي أبرَّ النَّاس بأبي، وأنَّ المالَ الَّذي كُنتُ أُرسلُه قدْ ساهمَ في إسعاده، بينما هو يدَّخرهُ لي.

شعرتُ حينها بألمٍ وغصَّة، وتخيلتُه يبيتُ جائعًا ومالي بين يديه، فلا يمسُّه لأجل بناء مُستقبلي، فحزنتُ لأنِّي لمْ أُخبرهُ بأنَّ هذا المال هديَّةٌ منِّي إليه، وأنَّ حالي مستورٌ، وعندي ما يُغنيني عنه، وأعتقدُ حتَّى لو أخبرتُه لادَّخرهُ لي أيضًا، فسُرِّيَ عنِّي الحَزَن.

فقلتُ: هذا المالُ حرامٌ عليّ، وهو لك خالصًا فافعلْ به ما تشاء، ففكَّر مليًا ثمَّ أخبرني بقراره فقال: نذرتُ أن يكونَ لزيارة المدينة المُنوَّرة، على ساكنها أفضل الصَّلاة، وأتمَّ التَّسليم.

ففرحتُ بقراره، وقلت له: ومن الآن فصاعدًا، كُلُّ مالٍ أُرسلهُ لكَ فيما بعد، فهو لكَ لا تُبقي منه شيئًا، فضحكَ ولم يُجب، ولسانُ حاله يقول: هذه طريقتي ولنْ أحيدَ عنها.

فبدأت الفكرة ببناء البيت، وكان بناؤه من الحجر الصُّلب، الَّذي يُجلبُ من صخورٍ جبليَّة بالقُرب من القرية، فاتَّفقتُ مع جَمَّالٍ ليحضرَ الحِجَارةَ على جَمَلِه.

وكان في طريق الجمل قطعةٌ أرضٍ لجاري اللَّئيم -الَّذي استعار الضَّمْد من رحيمي-، وكانت مُتَّجهةً مع ارتفاع الجبل، ويصلُ طولها عشرين مترًا صُعودًا، بينما عرضُها لا يتجاوزُ المترين، وكان الحالُ شاقًّا على الجمل، فيضطرُ للالتفاف حولَها وهو مُحمَّلٌ بالحجارة، والأسْهلُ عليه أن يقطعَ عرضُها في خُطوتين.

فتوجَّهتُ لجارِي -صاحِب الأرض-، واستضافني بما يليقُ بي، فأخبرتُه بطلبي رحمةً بالجمل فحسْب، وكان الجَمَّالُ معنَا، فقلتُ لجاري: أرْضُكَ مزروعةٌ بالشَّعير، ولا أظُنُّ فيها أكثرَ مِنْ مُدٍّ، وسأُعطيك عشرةُ أمدادٍ مقابلًا له.

فاعتذر منِّي قائلًا: لو طلبتني أحدُ أبنائي لكانَ أهونَ عليّ من طلبك هذا، لا أريدُ أن أفتحَ للآخرين بابًا عليّ، والحقيقةُ ليست في هذا السَّبب، وإنَّما هو حسدُ اللَّئيم، الَّذي لا يريدُ نفْعَ الآخرين، ولا يتمنَّى الخيرَ لهم.

فأتت زوجتُه نحونا، وكانت بنتَ أكرمَ رجلٍ في القرية، فقلتُ: لوْ كنتُ أعلمُ بردّكَ، لطلبتُ من فُلانه بنت فُلان فلبَّت طلبي، وحفظتْ ماء وجهي، فالكرمُ يُورَّث بين الأجيال.

أمَّا الجَمَّالُ فضُعقَ بما سمعَ وقالَ: لا تحملْ همًّا سأنْقلُ الحجارة إلى أيّ مكانٍ تُريْدُه، ولو التفَّ جملي على الجبل مرارًا، أسعدني الجَمَّالُ بموقفه معي، وخرجنا من عندِ اللَّئيم بمعرفته عن قُرب، والحمدُ لله على البَصيْرة.

فوائدٌ تربويَّة:

١- عندما يجتمعُ لئيمٌ وكريمٌ في مجلس، فتطلبُ من اللئيم حاجتك وتظُنّ به خيرًا، فتتفاجأ برفضه بحججٍ واهية، فيُعجبك الكريمُ بوقفته معك ومُواساتك.

٢- اللئيمُ لا يخجلُ من فِعْله، بل يظُنُّه عينُ الصَّواب، وأنَّه قدْ فازَ ببُخله وشُحِّه.

لَجْنَةُ إصْلَاحِ ذاتِ البَيْن

كانَ والدي يفكرُ بصوتٍ عالٍ، فكانَ يُسْمِعُنَا كيف يناقشُ الأُمور، وكيف يتعاملُ مع ضُغوطاتِ الحياة، لم يكن مُنغلقًا على نفسه ولا مُتَحفِّظًا، بل كان اجتماعيًا بشكلٍ مُلْفتٍ للغاية.

فتأثَّرتُ به واستفدتُ منه في مُعالجة المُشكلات، وإصلاحِ ذاتِ البَيْن، فكانَ يتناقشُ معي أحيانًا، وأحيانًا يُحدّثُ نفسه بصوتٍ مسموعٍ فيُفنّد المشكلة، ويُعدّدُ احتمالات حلّها، وأبعادها، ومآلاتها، كُلُّ ذلك مِنْ أجلِ أن يرسمَ لي طريقًا في حلّ المُشْكلات.

وهذا أسلوبُ التّدريب الفرديّ المُتميّز، فيكونُ واقعيًا من أحوال النّاس والخُلطة معهم، ويكونُ مشاركةً بين الأطراف، كُلٌّ يدلو بدلوه، وهكذا تتلاقحُ الأفكار، وتتهذّبُ النُّفوس.

وهناك من يقومُ بخدْمتك، وإصْلاحِ الخَلل لديك، سواءً في سيّارتك أوْ بيتك، دونَ مشاركة الأفكار بينكما، وكذا الحال في التّشخيص الطّبّي؛ فيصرفُ لكَ الطّبيبُ الدّواء دونَ أن يشاركك المُشكلة، أوْ يُوضّح لك مَكْمَن الخَلَل، وهنا ينتفي التّدريب وتقلُّ الفائدة.

أمّا مَنْ يحرصُ على تعليمك أكثرُ ممّا يحرصُ على علاج مُشكلتك، فهذا الّذي يُعلّمك كيف تفكر، ولا يُفكّر لكَ، ويعلّمُكَ كيف تتعلّم، ولا يُقدّمُ لكَ المعلومةَ على طبقٍ مِنْ ذَهَب، وهكذَا كانَ أبي.

وذاتَ مرّة حصل خلافٌ بين زوجين من الجيران، ووصلَ خلافهما للمَحْكَمة، فحُكم على الزّوج بالسّجن، ورزق بمولودٍ من زوجِه وهوَ بالسّجن.

فانتهت مُدَّة سجنه فخرج مِنَ السّجن، ووجدَ شكوىً في المَحْكمة، قدَّمها والد زوجة يُطالبه بمصّروفٍ ونَفَقة، وكان والدها لا يُحسنُ الكلامَ، فوكّل من يقومُ مقامَه، فكان الوكيلُ عَدِيْلَه[٢٤].

نظرَ القَاضي في القضيَّة وأحالهما إلى الصُّلح، وطلبَ منهما أنْ يبحثا عن حَكمين عَدْلين، وذلك في عام ١٣٩٤هـ تقريبًا، فاختار والدُ الزَّوجة كاتبُ عدلٍ مِنْ جِيْرانه، واختارَ الزَّوج والدِي كجارٍ قريبٍ منه.

تلخَّصت القضيَّة في أنَّ خلافًا دبَّ بينَ العديلين بسبب دَيْنٍ بينهما، ووصلت إلى مدّ الأيادِي.

فحُكمَ على الزوج بالسّجن بسبب دَيْنِ عديله، وبسبب الاعتداء عليه بالضَّرب، وفي أثناء إقامته بالسّجن رُزقَ بمولودٍ ذكر.

وبعد خروجه من السّجن كانت قضيَّتهُ في مُطالبة والدُ الزَّوجة بالنَّفقة، فهوَ يطْلبُ نفقة الولادة بالمستشفى الخاص، وثمن العقيقة التي ذبحها لابنه.

اعترضَ الزَّوج بقوله: لا أُطيقُ نفقةُ الولادة، ولا تكاليف المشفى الخاص لأنَّ الحُكومي يُؤدّي الدَّور نفسه، وهذا التَّصرُّف من والدها وأنَا لا أتحمَّلُ ثمنَ تصرُّفه.

أمَّا العقيقة فهيَ مِنْ واجباتي الشَّرعيَّة، وأنَا أبوه، فكيف لجدّه أن يذبحَ العقيقة وأنَا في السّجن؟ وكيف يدعو لها شخْصًا تسبَّب في سجني وإيذائي؟ والآن يُطالبُني بثمن ذلك!!

فأرادَ أبي أن يُصْلحَ بينهما، وكذا المُصْلِحَ الآخر، وبيَّنَ لهما الصَّواب والخطأ، وأنَّ بينهما قَرابة والصُّلح أوْلَى بهما، لكنَّ المُشكلةَ تكمُنُ في العَدِيْل الّذي كانَ يُصِرُّ على الطّلاق ويراهُ حلًّا وحيدًا.

---

[٢٤] العديل: زوجُ أختِ الزَّوجة.

حاولَ أبي في مُناصحته، فليسَ من حقّة التّفرقة بين زوجينِ بينهما طفل، وهُما لا يرغبان في الفِراق، وحتّى إنْ كانَ وكيلًا شرعيًا إلّا أنّ تصرُّفَهُ كان خاطئًا، لكنّه أصرَّ على موقفه.

عند ذلك كتبَ والدي تقريرًا للقاضي بما جرى، وأنّ الخَلل في الوكيل لأنّ لهُ مآربُ أُخرى.

وفي الجلسة القادمة حضر أطرافُ القضيّة، وكان الوكيلُ حاضرًا، فاستمع القاضي للجميع، وتحقّق من صحة ما نقلهُ الوسطاء بينهم، فسحب الوكالة مِنْ الوكيل، ومزّقها أمامَ عينه، وهدّدهُ بالسّجن إنْ تدخّل بينهما مرّةً أُخرى، فكان الصُّلح وعاد الزّوجان أفضل ممّا كانَا عليه مِنْ قَبْل.

فوائدٌ تربويّة:

١- إصلاحُ ذاتِ البَيْن عمليةٌ مُعقّدةٌ وشائكةٌ، فتحتاجُ إلى خبيرٍ تتوفّرُ فيه الحكمة، والصّدق، والعدل، والعلم، وبُعْد النّظر، ولهذا لا بُدَّ من حَكَمَين يتشاركان تلك الصّفات، ويمثّلُ كُلُّ واحدٍ منهما طرفٌ من طَرَفَي الخصام.

٢- الشّيطانُ لا يرضى بالصُّلح ولا التّقارب، ولذا سيكونُ له دورٌ في التّفرقة والتّخبيب بينهما، ويظهرُ أثرُه على طرفي الخِصَام، أوْ على الحَكَمَين، فيجبُ أن يكونَا على درايةٍ بمكر الشّيطان وغايته.

٣- الغايةُ من إصلاحِ ذاتِ البَيْن هي تقاربُ الطّرفين، وتنازُل كلّ طرفٍ عن شيءٍ يساعدُ على التّقارب، ويتحقّقُ ذلك بالعفْو والصّفح والتّغافل لابتغاء ما عند الله.

حَلْوَى الدُّخَّان والغَضَبُ المَقْصُود

نهى النَّبيُّ مُحمَّد ﷺ عن الغضب، وذلكَ حينمَا استوصاهُ رجلٌ بقوله: أوصني يا رسول الله فقال: لا تغضبْ، وردَّدها مرارًا[٢٥].

ويترتَّبُ عليه صدورُ ردَّةِ فعلٍ يندم عليها الإنسان، فالغضبُ من الشَّيطان، وهو يستغلُّ حالة الضَّعف الَّتي تنتابه فيحثُّه على فعل ما يُشينه.

فالمُربّي، والمُحَاوِر، وصُنَّاع القرار، يجب عليهم أنْ يكونوا في حالٍ من السَّكينة، والتَّعقُّل، والتَّروي، فالَّذي لا يملكُ نفسَه عند الغضب، لا يستطيع الإدارة ولا القيادة، ولا يُوفَّقُ في اتخاذ القرارات الصَّحيحة[٢٦].

ولأنَّنا بشرٌ قد تعترينا بعضُ نوبات الغضب، ولا سيَّما في مقاماتِ العلم والتَّعلُّم، ولكنَّه -أحيانًا- يكونُ مقصودًا إليه، ويُتحكَّمُ في مِقْدار شدَّته، لغرض التَّعليم والتَّوجيه والتَّربية، ولبيان أهمية أمْرٍ ما، وهذا الَّذي حصل مِنْ والدي -رحمه الله-.

خرجتُ ذاتَ يومٍ إلى الشَّارع مع أحدِ أبناء الحيّ، فرآني أبي وأنا أضعُ سيجارة في فمي لأُقلِّد بها المُدخّنين، في زمنٍ كُنَّا نرى التَّدخين من علامات الرُّجولة، والرُّقي، والتَّميُّز، فيُمارسهُ المُعلِّم والمُدير، والتَّاجر بطريقةٍ تُوحي لنا اقتران التدخين بتلك المكانة.

فعندما شاهدَ أبي هذا المنظر غضب غضبًا شديدًا، ورفع صوته ونهرني، وأنَا مُطْمئنٌ غيرُ خائفٍ لأنِّي لمْ أرتكب جُرمًا، فقد أخطأ الفهم، وأساء بي الظَّن، حينها كنتُ في الصّف الثَّالث الابتدائي، فقلتُ له: هذه حلوى؛ وكانت تُشبهُ السّيجارة تمامًا، فتوقَّعتُ أنْ يزول غضبُه، وتهدأ

---

٢٥ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رَجُلًا قَالَ للنَّبِيِّ ﷺ: (أَوْصِنِي، قَالَ: لا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ: لا تَغْضَبْ) رواه البخاري.

٢٦ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ؛ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ) متفق عليه.

نفسُه، ويطلبُ منها واحدة ليُجرّبها، فهي مِنْ وجهة نظري مُمْتعة، أقلّد فيها الكِبَار، وأقضمُ طرفها حُلْوِ المذاق!

فصُعقتُ مِنْ شدَّة غضبه، ونهرني زيادةً على المرّة الأُولى، وقال: هذه سيّئة، تُعلّمك التّدخين، وتُجرّؤك عليه، فأمرني أن أرميها في الحال، وفعلتُ ذلك على مضض.

فلكَ أن تتخيّل ردَّة فعله، وما تعلّق بذهني منذُ ذلك الحين، فلسان حالي يقول: إن كان هذا غضبُه من مُجرّد حلوى، صُنعت على هيئة سيجارة، فكيف سيكونُ حالهُ لو كانت سيجارة حقيقيّة؟!

ولعلّ ذلك الموقف التّربويّ الحكيم من الوالد -رحمه الله- هو الّذي عصمني -بتوفيق الله عزّ وجل- من تجربته، وجعلني أنفرُ منه.

فوائدُ تربويّة:

١- الغضب وصْفٌ لا يليقُ بالوالد والوالدة، ولا المُعلم والمُعلمة، ولا المُربّي والمربيّة، فلو غضب هؤلاء بدون وعيٍ وإرادة؛ لصدرت عنهم تصرفاتٍ يندمون عليها الدهْر كُلّه، والصوابُ أن يكون الغضب بإرادةٍ وتحكُّم وقصد؛ لإبداء ردَّة فعل، أو توضيحٍ لشناعة أمرٍ ما، ولو بدر منهم الضّرب أو التّعنيف -غير مُتحكّمٍ فيه- لكانت النّتيجة سلبيّة، والعاقبةُ وخيمة.

٢- أعداءُ الأُسرة والفطرة، واللّاهثين حول ربح المال بأيّ وجه مُنذ القدم، هؤلاء لا يُراعون قِيَمًا، ولا ثوابتًا، ولا أعرافًا، بل رُبّما يسعون بقصدٍ للهدم الواعي.

٣- تصرُّف الوالد وردّة فعله أبلغُ من موعظة، ومن إقناعٍ، ومن إرشاد.

أنتَ خيرٌ مِنْ أبيْك

أذكرُ حدثًا وكأنَّه مقطعٌ من فيديو، لا يزيدُ عن نصفِ دقيقة، كان والدي يدْرسُ في محو الأُميَّة، وكنتُ واقفًا إلى جواره، في عامي التَّاسع تقريبًا، وكان معي قلمُ رصاصٍ ودفتر، فكنتُ أكتبُ كمَا يكتبون، وأُناولُ المُعلِّم دفتري كمَا يفعلون، وذلكَ في مادَّة الرِّياضيَّات.

أخذ المُعلِّم دفتري كمَا يفعلُ معهم، ونظر إلى كتابتي ووجهي مراراً، ثم وضع علامة الصَّح [✓] من أسفل الورقة إلى أعلاها، وقال لي: "أنتَ خيرٌ من أبيك"

وقعت منّي الكلمةُ موقعًا كبيرًا جدًّا، ولسانُ حالي يقول: هذا الَّذي يعرفُ قدْري، ويُقدّر تميُّزي، فالتفتُّ لوالدي في صمتٍ، وكأنِّي أقولُ له: انظرْ واسمع مُعلِّمَكَ ماذا يقول؛ لتعرفَ من أنا؟

فدفعتُ بدفتري لأبي؛ لينقلَ الجوابَ الصَّحيحَ منّي، وكذلك فعلتُ مع بقيَّة زملائه، وهم يُجاملونني ويشكرونني على المساعدة.

فرُبَّما كانَ المُعلِّم واعيًا للكلمة الَّتي قالها لي، ورُبَّما كانت عابرةً، ولا يدركُ أثرها الَّذي امتدَّ معي إلى هاته اللَّحظة الَّتي أُسطّرُ فيها ذكرياتي!

تلك الكلمة جعلت منّي إنسانًا يُحبُّ مادَّة الرِّياضيات حُبًا جمًّا، بل لا أُصدّقُ من يقولُ بأنَّ المادَّة صعبةٌ، ولا أتقبَّلُ أن تكونَ هناك مسألةً لا أُحسنُ حلّها، أوْ التَّعاملَ معَ مُعطياتها، فأنا مُجازٌ من مُعلِّم والدي!

ولعلَّ أبي كان لهُ دورًا كبيرًا في ذلك، فكُلُّ مسألةٍ حسابيَّة أُشاركه فيها، وكانَ يعتمدُ على عبقريَّتي وقُدرتي الَّتي تفوقُه في الحساب.

فعندما يريدُ حسابَ المصاريف فإنَّه يستعينُ بي بعد الله، ويشعرني بأنِّي الخبيرُ في ذلك، ولا يستغني عن مشورتي وعبقريَّتي.

فكنتُ أجردُ معه حسابَ مُشترياتنا اليوميَّة، وكم انصرف منها؟ وكم بقي؟ ويشاركني قراءةَ ميزانيَّة الدَّولة غرَّة شهر رجب من كُلّ عام، وكُنَّا ننتظرُ أخبارَ تلك اللَّيلة بفارغ الصَّبر، ونُرابطُ عند شاشات التّلفاز، فنعرفُ حجم الصَّادرات والواردات، وفي اليَّوم التَّالي يُنشرُ تقرير الميزانيَّة لجميع قطاعات الدَّولة في الصُّحف والجرائد، ويتبادلها النَّاسُ فيما بينهم، فأقرأ معه تلك الأرقام الفلكيَّة في نظري، والَّتي لمْ أتعلَّمُها بَعْدُ في المدرسة.

ومنهُ تعلَّمتُ قراءةَ خانات الملايين، ومعَ هذا كانَ يُشعرني بأنّي أنَا المُتفضّلُ عليه، وتعلَّمتُ منه الجمعَ والطَّرحَ والعمليَّات الحسابيَّة المُعقَّدة، وكانت بطريقة (تعلُّم الأقران، والتَّعلُّم التَّعاوني) في زماننا، فتارةً أُعلّمُهُ وتارةً أتعلَّمُ منه، ولكنّي أُشْعُرهُ في كُلّ مرَّة بأنّي أعْرفُها مِنْ دُونه، ثمَّ أُعَلّمُه ما تعلَّمتُه منه، وكانَ يُذْهشُه ذلك، وتُسْعدُني دَهْشَته، كُلُّ ذلك وأنَا في المرحلة الابتدائيَّة.

كمَا تعلَّمتُ منه حسابَ مساحة جُدران الغُرفة، وسقفها، وأرضيَّتها؛ لحساب تكاليف الدّهان والبَلاط، ثمَّ حَسْمِ مساحات الأبوابِ والنَّوافذ من المساحة الكُليَّة، وتعلَّمتُ منه حساب حجم الخَرسانة المُسلَّحة في القواعد والأعْمدة والأسْقف؛ لحساب أُجْرة المُقاول.

وتعلَّمتُ منه أعمال السّباكة، والنّجارة، والكَهرباء، والبنّاء، والبَلاط، وتفوَّقتُ فيها عليه، وكانَ كغَيْره يقومُ بأعمالِ صيانة المنزل بنفسه؛ لشُحّ العَمالة، ولعدم وجود القدْر الكافي من المَال لدفعة أُجرةً لهم.

وتعلَّمتُ منه الفكَّ والتَّركيب، وصيانة مضخَّة الماء، والأجهزة الكهربائيَّة كالرَّاديو والتِّلفاز، وأوجدَ لديَّ الجُرأةَ في فكِّ الأجهزة واكتشافها، ومِنْ ثمَّ إعادةُ تركيبها كمَا كانت.

وكانت أوَّلُ مُصافحةٍ إلكترونيَّة لي مِنْ حظِّ جهاز التَّسجيل، والشَّريطُ كانَ عبارةً عن بكرتين مُنفصلتين، ينتقلُ الشريطُ من بكرة لأُخرى، مع التَّبديل بينهما ليتمَّ سماعُ المادَّة الصَّوتيَّة مرَّةً أُخرى.

وأوَّلُ جهازٍ أقْتَنِيْهِ كانَ (جهاز التَّسجيل)، وكنتُ في الصَّف الثَّالث مُتوسط، وأوَّلُ جهازٍ يُهدى لي كان (جهاز تلفزيون)، أهداهُ لي أبي فرحةً بنجاحي من الصَّف الأوَّل مُتوسط.

وجهاز التَّسجيل اشتريتهُ من محلّ يبيعُ الأجهزة الإلكترونيَّة، في مسجد الهادي بجوار مكتبة الأجيال، وكأنِّي أنظرُ للمحلّ وللمُسجَّل الآن، وأذكرُ صوْرته وتفاصيله.

وقام البائعُ بتجربته أمامَنا، فأدخلَ الكاسيت بداخله واشتغلَ مقطعٌ مُوسيقيّ، وقمْنا بتسجيلِ أصواتنا، وهكذا تمَّت عملية اختباره على أكمل وجه، فدفعنَا الثَّمن وتمَّ الاستلام.

وصلتُ المنزل فأردتُ أنْ أمْحُوَ صوت المُوسيقى، وأبدله بتسجيلٍ صوتيّ لي، وكانتْ أوَّلُ مرَّةٍ سأسمعُ فيها صوتي، ولكنَّ الأمرَ لمْ يتمّ، فكنتُ أكبسُ على مفتاح التَّسجيل فلا يستجيب، ففزعتُ مِنْ أبي، ولم أستطع إخباره، فالخللُ طارئ، والبائع قام بتجربته أمامنا، وهذا يعني أنَّ الخللَ صارَ بفعلي.

وبدون خوفٍ ولا تردُّد، فتحتُ غطاء الجهاز، ووصلتُ إلى أعماقه لأكتشفَ الخلل، وتركتُ أخي (عبد الكريم) يُراقب والدي؛ لأنِّي لا أريدُه أن يرى المشْهد، فالجهاز جديدٌ للتَّو، وأيُّ صيانةٍ سأقومُ بها الآن، ستكونُ نتيجتها عقابٌ ولوْم لا محالة!

وتتبَّعتُ المانعَ من التَّسجيل، فوجدتُ ذراعًا من الحديد هو السَّبب، وتبيَّن لي أنَّه لا يسمحُ بضغط مفتاح التَّسجيل إلَّا إذا كان الكاسيت في الدَّاخل، فأدخلتُه وجرَّبتُ تسجيل صوتي فتمَّ لي ذلك، ولكنْ ظهرتْ لي مُشكلةٌ أخرى، وهي أنَّ التَّسجيلَ يتمُّ على أحد وجهي الشَّريط ولا يتمُّ على الآخر، فاكتشفتُ السَّبب بنفسي؛ فهناكَ قطعةٌ مكسورةٌ عمدًا في شريط الكاسيت، وهي الَّتي تمنعُ من التَّسجيل على الوجه الَّذي فيه مقطعٌ مُوسيقيّ.

وسريعًا أعدتُ كُلَّ شيءٍ لمكانه، وتجاوزتُ المشكلةَ كمَا كنَّا نفعلُ جميعًا، وذلك بحشو منطقة الفراغ بشيءٍ من الورق؛ ليُسمح لنا بالتَّسجيل.

هذه الجُرأةُ كانت لأسباب منها: ثقتي بنفسي وهي غرسُ أبي، والجمعُ بينما تعلَّمتُه منه عمليًّا، وما تعلَّمتُه في المدرسة نظريًّا، من أساسيَّات الفيزياء، والحساب، والهندسة، والكهرباء، وغيرها.

فكان العملُ مع أبي بمثابة التَّطبيق العمليّ في ورشةٍ علميَّة، فما أجمل أنْ تتحوَّل المواد الدِّراسيَّة إلى تطبيق عمليّ في الحياة، ولا تبقى حبيسة الكُتب!

فوائدٌ تربويَّة:

١- المُعلِّمُ المُوفَّق هو الذي لا يبخلُ بالكلمة الطَّيبة لتلاميذه.

٢- كلمةٌ صادقةٌ مِن معلِّم قد تكونُ نقطة تغيير في حياة طُلَّابه، بل نقطةُ تحوُّلٍ في كيان الأُمَّة، فإن كنتَ أهلًا لها، فإيَّاكَ أنْ تبخلَ بها.

٣- المواقفُ الإيجابيَّة، وكذا السَّلبيَّة -الَّتي يكونُ لها وقعٌ كبيرٌ في النَّفس- ، تُحفرُ في الذَّاكرة ولا تُنسَى، فإيَّاكَ أن تكونَ لك ذكرى سلبيَّة في ذاكرةِ أحدهم!

خَبِيْرُ اللُّغْم

حكى لي أبي عن رجلٍ من (بني مَالِك) حكايةً يقولُ فيها: قضيتُ حياتي كُلَّها في عمل الألْغَام لتفجير الصُّخور[٢٧]، فسئمتُ من مشقَّته وخُطورته، فقررَّتُ السَّفر لأعملَ بالطَّائف، فوصلتُ ومكثتُ أيامًا لم أجد فيها عملًا سوى مرَّة أو مرَّتين.

وسألني رجلٌ لا أعرفه فقال: أكنتَ تعملُ في الألْغام؟ فقلتُ: لا، وعندمَا نفدَ مالي، وأصبحتُ لا أجدُ قوتَ يومي، قرَّرتُ العمل في أي مكانٍ يُعرض لي.

فظهر لي شخصٌ آخر وسألني السُّؤال نفسه، فقلت: نعم، كنتُ أعملُ في الألْغام، فذهبتُ معَه واتَّفقنا على العمل والأُجْرَة، وكانَ العمل فيها يستغرقُ عدَّة أسابيع؛ فعملُ الثُّقوب في الصُّخور يستغرقُ وقتًا طويلًا، وكانت الأدواتُ بدائيَّة، وإزالةُ الصُّخور بعد تفتيتها يستغرقُ وقتًا لا يقلُّ عن سابقه.

وبعدَ أن فرغتُ من العمل، وقبضت الأجرة، قرَّرتُ الذَّهاب إلى مكَّة المُكرَّمة، والبحثُ عن عملٍ هناك، فكان معي من المال ما يكفيني لأشْهرٍ؛ لذا قرَّرتُ ألَّا أعملَ في اللُّغم مرَّةً أخرى.

مكثتُ أيامًا وأسابيعَ في مكَّة، ولمْ يُعرضَ عليَّ إلَّا المهنة نفسها، وكأنَّ النَّاس تراها مكتوبةً في جبيني، فاضطررتُ للعمل فيها عندما نفدت أموالي.

قبلتُ أوَّل عرضٍ أتاني، ومكثتُ فيه مدَّة، وقبضتُ أجرتي، حينها قرَّرتُ الذَّهاب للمدينة المُنوَّرة، وكان معي من المال ما يكفيني لأسابيع،

---

٢٧ استخدام البارود في تكسير الصُّخور، وحفر الآبار، وتعبيد الطرق، واستخراج الحجارة لعمارة البيوت والحصون.

واتَّخذتُ القرارَ نفسه، لن يكون عملي القادمُ في الألْغام، فحصل لي ما حصلَ في مكّة المكرمة، والطّائف.

فقبلتُ العملَ بعد نفاد صبري ومالي، وقرّرتُ بعدها أنْ أعملَ بما يكفي لرجعتي إلى الدّيرة فقط.

وقلتُ في نفْسي: كتب الله عليَّ العملُ في الألْغام أينمَا يمّمتُ وجهي، فإذا كان الأمرُ كذلك فليكن ببقائي عند أهلي وعشيرتي، فاستوعبتُ الدّرس جيّدًا في مسألة الرّزق، وعلمتُ أنَّ الإنسان يضربُ في الأرض يمنةً ويسْرة، وخِيْرةُ الله تُحيطُ به في كُلّ مكانٍ، والحمدُ لله على كُلّ حال.

عدتُ إلى الدّيرة، ووجدتُ من العمل ما يستغرقُ منّي عامًا، وكأنّها كانت بانتظاري، فرضيتُ بقسْمة الله لي، وشعرتُ بأنَّ غيابي أحدثَ خللًا، وتركتُ ثغرةً بقيت عامًا كاملًا تنتظرني.

فاستفدتُ من أسفاري أنَّ الرزقَ مقسوم، ومكانه معلوم، فتبقى القناعة والرّضا بما كتب الله، واليقين التّام بأنَّ خيرةَ الله للعبد أفضلُ من اختياره لنفسه، فاللهمَّ لا تكلنا إلى أنفسنا طرْفة عين.

فوائدٌ تربويّة:

١- القناعةُ بما كتبَ الله لك من: رزق، ومنزلة، وأقدار، كنزٌ عظيم يمنحك الرّضَا والسّعادة.

٢- السّعيُ والبحثُ عن الأفضل لا يتعارضُ مع الرّضا، بل هو أخذٌ بالأسباب، والعبرةُ في كمال الرّضا باختيار الله.

دروس زكاةُ الفِطْر

كان لزكاة الفطر -ونحنُ أطفالٌ- وقعٌ في نفوسنا، وكنَّا نعرفُ وقتَها، وشروطها، ومقدارَها، ومُستحقِّيها، وموانعها.

فإذا انصرمَ شهرُ رمضان، ولم يتبقَّ منهُ إلَّا بضعةَ أيَّام، أحضر أبي كيسًا من الأرز، زنتهُ خمسة وأربعين كيلو جرامًا، فسكبهُ على قماش، وأحضرَ المكيال وزنتهُ صاعًا، فبدأ يكيلُ قائلًا: هذا عن فُلان، وهذا عن فُلانة، وهذا عن فُلان، وكلٌّ منَّا ينتظرُ اسمه بفارغ الصبر.

وكلُّ صاعٍ يُوضع في كيسٍ لوحده؛ ليوزِّعه على مُستحقِّيه من الجيران، وكانت لا تخرجُ عنهم.

فعرفنا بهذا المشهد المألوف أنَّ رمضانَ قَدْ شارفَ على الرَّحيل، وأنَّ العيدَ يطرقُ الأبواب، وأنَّ الزكاةَ عن كُلّ فردٍ بزنةِ صاع، فالمشهدُ رأيناهُ بأُمّ أعيننا، فالزَّكاةُ تُؤَدى من طعامنا، وتُعطى لمُستحقِّينا، وتُكونُ في ليلة العيد.

فكانت شعيرةً ونُسكًا، لا ندرُسه في المدرسة فحسب، بل نعيشُه واقعًا، ونتلذَّذ بتطبيقه، والمشاركة فيه.

أمَّا الآن فيكتفي ربُّ الأُسرة بإخراجها عبر تطبيق الجوَّال، فيُخرجها عن أفراد الأُسرة دونَ علمهم، ولا يعلمُ إلى مَنْ تَصِل، ولا يشهدُ شيئًا من إجراءاتها، فذهبتْ تلك اللَّذة وذلك الشُّعور.

وأخشى بعد أجيالٍ أنْ تُنسى، فالَّذي يتولَّى إخراجها اليوم هو الجيل الذي عاش ذاكَ الزَّمان، وأمَّا مَنْ أُخرجت عنهم -الآن- دونَ علمهم، فأعتقدُ أن الزَّمان سيُلهيهم عن إخراجها، إلَّا مَنْ رحم الله.

ولكنْ لكلّ جيلٍ ما يُناسبه، فقد تأتي تقنية تُؤدّي عنك الزَّكاة بالوكالة المُبرمَجة لسَنواتٍ، ويتولَّى ذلك جهاتٌ مُعيَّنة، حتَّى تُنسى شعائرها؛ فتُصبحُ أمرًا غريبًا.

وإنّي أُناشِدُ أن يكونَ هناكَ آليةٌ بما يتوافقُ مع الحال في إخراجها؛ لأنَّ الغايةَ منها أنْ يُشاركَ الجميعُ في حسابها وإخراجها، أوْ يتولّى كُلُّ فردٍ قادرٍ على إخراجها إلكترونيًا عن نفسه، حتّى لا تُنسى تلكَ الشَّعيرة العظيمة.

فوائدٌ تربويّة:

١- لمْ أتخيّل أنَّ والدي كان يهدفُ لغايةٍ تربويّة ساعةَ اجتماعنا لإخراج زكاة الفطر، وساعةَ كيل الصّاع بأسمائنا، ولكنّي أدركُ الآن أنَّ غايتَهُ هي استشعارُ تلك الشَّعيرة بكلُّ ما أوتيَ مِنْ قُدْرةٍ واستطاعة.

٢- كانت البيوتُ ضيّقة، والغرفُ قليلة لكنَّ بركتها كثيرة؛ فقد كانت سببًا في اجتماعنا على مائدةٍ واحدة، وشاشةٍ واحدة، فتحصلُ بيننا المواقفُ التّربويّة، ونستدعي التّربية بالقُدوة والقصّة، ونتعلّمُ فنَّ الإنصات والحِوَار، ونتبادلُ الخبرات، ونُشجّعُ المَواهِب.

من كانت له زوجتان فلا يهجُرهما معًا

كانَ لأبي زوجتان، وكُنَّا نناديهما معًا بـ (أمّي)، بنى أبي بعمَّتي وهي في بيت أبيها -جدّي علي-، وذاتَ مرّةٍ ذهبتُ معه في زيارةٍ لهم، حينها كُنتُ طفلًا في الصّف الأوّل الابتدائي.

فكان يُناديها باسمها وهي تحلبُ البقرة، فناديتها كذلك باسمها، فنهرني أبي وكأنّي ارتكبتُ جُرمًا عظيمًا، فأدّبني وقالَ: قُلْ يُمّه، فمنذُ ذلك الحين إلى اللّحظة هاته وأنا أُناديها بـ(يُمّه)، -متّعها الله بالصّحة والعافية- فكنتُ لها ابنًا راشدًا، وكنتُ الأقربُ لها، وهي الأقربُ لي من أمّي؛ لصِغَر سنّها.

فلمّا دخلَ بها والدي، وانتقلت لبيتنا، عاشتْ معَ أُمّي في بيتٍ واحد، وكان لهما مطبخٌ واحد، ولكُلٍ منهما مهامٌّ يوميّة، فكُلُّ واحدةٍ منهنَّ تُكْملُ نقصَ الأُخرى، وتقومُ بخدمتها حالَ مرضِها، ونفاسِها، ومعَ أعباء المنزل كانتا في خدمة أبي عند حاجته لهنَّ، فيُشاركنه في أعمال البناء، والسّباكة، والصّيانة، وغيرها.

وعلّمهنَّ الخياطة، فلكُلّ واحدةٍ منهنَّ ماكينة للتّطريز -من نوع سنجر- وبينهنَّ تنافسٌ شريف على الإنتاج وتجويده، فكُنَّ يعملن في تطريز (الطّواقي) في خطّ إنتاجٍ مع بعض الجيران، مِنَ الجنسيّة البُخاريّة والصّينيّة، وبعض أبناء القبيلة، وذلك في التّسعينات الهجريّة (١٣٩٠هـ).

وهناكَ أسرةٌ بُخاريّة مُتخصّصة في إنتاج قُماشٍ يتكوّنُ من طبقتين: البوبلين أوْ التترون، وكذا الشّاش، وبينهما طبقةٌ من القُطن لتغطية رأس الطّاقيّة وجوانبها.

ونحنُ نقومُ بعملية التَّطريز، ثم تعودُ إلى الأُسرة الصّينيَّة؛ لتقوم بخياطة رأس الطَّاقيَّة معَ جوانبها، ثمَّ تقومُ بكيّها وتغليفها، كُلُّ كورجة (عشرين طاقيَّة)، توضعُ في كيسٍ واحد.

ثُمَّ يأتي دورُ المُسوّق، وغالبًا ما يكونُ من القبيلة، فيأخذُ الكميَّات الجاهزة، ويسافرُ بها إلى الرّياض أوْ الدَّمام وغيرها.

وكان لأبي صديقين مُقرّبين هما: مُدير المدرسة، وصديقٌ مِنْ أهل القرية، وذاتَ يومٍ حصلَ خلافٌ بينه وبين مدير المدرسة، فهجرهُ لبضعة أيّام، وفي اليوم التّالي حصلَ الخلافُ بينه وبين صديقه الآخر.

ولكنَّ أبي بادرَ واصْطلحَ معَ الأوّل، فتعجَّبتُ من صنيعه، فقالَ لي: "إذا كانَ لكَ زوجتان، أوْ صديقان، فلا تهجرهُما معًا، وإلّا فأنتَ مَنْ عزلتَ نفسكَ وعاقبتَها، اصطلح مع أحدهما".

وعندمَا يضربُ مثلًا بالزّوجتين فلأنَّهُ واقعٌ أعيشُه كُلَّ حِيْن، فلا أذْكُر في يومٍ أنّه غضبَ على الاثنتين معًا، أوْ قاطعَهما معًا، أوْ هَجَرَهما معًا، وكان في فِعْلهُ حثٌّ لكُلِ واحدةٍ منهنَّ ألّا تكونَ هيَ المَهْجُورة، لذا فكنَّ سريعًا ما يُعالجنَ المُشكلة، ويبادرنَ بالصُّلح دونَ تدخُّلٍ مِنْ أحد، بلْ دونَ أنْ يعلمَ بالخِلَاف والصُّلح أحَدْ.

وكان لفعْله وقعٌ في نفسي، وقاعدةٌ عندي لا أحيدُ عنها، تربَّيتُ عليها وأسيرُ على خُطَاهَا.

فوائدٌ تربويَّة:

١- التَّربية، والتَّلقين، والتَّعليم في الصّغر، كالنَّقش على الحَجَر كمَا يُقال.

٢- الأُسرةُ الصّحيَّة: هي الّتي يجتمعُ فيها كُلُّ أفرادها، وتكونُ المودَّةُ والرَّحمةُ فيها سائدة، ويُكْملُ بعضهم نقْصَ بعض، وينوبُ بعضهم عن بعض.

أصدِقاءُ الإبْنِ العَشَرَةُ... وَصَديقُ الأَبِ الوَحِيدُ

حكى لي أبي قصّةً وأظنُّها مِنْ نَسْج خيالهُ فقال: كان لرجلٍ ولدٌ شابٌّ تُعْجبُه نفسُه، ويتباهى بكثرة أصحابه، فزعمَ لي أنَّهم عشرة، وكان يقضي ليلهُ ونهارهُ معهم، حتَّى ضاقَ الحالُ بأبيه؛ فنصحهُ، وحذَّرهُ لكنَّ بصيرته عليها غَشَاوة.

يقولُ: فجلستُ يومًا معه، وكُنَّا في ساعة استرخاءٍ وحدنا، فقلتُ له مُحاوِرًا: حدّثني عن أصحابك العشر، وبأيّ شيءٍ استحقُّوا صُحبتك ووقتك؟ وهل تجدهم حولك في السَّراء والضَّراء؟

فاسترسل في وصْف أحوالهم، حتَّى ظننتُ أنَّ الملائكة تُصافحهم، وأنَّهم يتوافدون عليه حالَ ضِيْقه وكَرْبه، ولديهم من صفاتِ الكمال ما يعجزُ اللّسَانُ عنه، ولكنَّ هذا الكلامَ كلَّه كانَ في مُخيّلَتِه فحسْب.

قلتُ: ولكن أخشى أن يخذلوك، فيتخلّوا عنك وقتَ حاجتك لهم، وكنتُ أُخطِّط لأمرٍ فأتحدَّثُ معهُ بكُلّ بُرودٍ عنهم، فأغضبهُ كلامي فيهم، وطفقَ يُدافع عنهم، وعن أخلاقهم، وإخلاصهم، ووفائهم.

وذاتَ يومٍ أيقظتُه في آخر اللّيل، فلمْ يأخُذ كفايتهُ من النّوم، فقلتُ له: قُمْ فنحنُ في كربٍ شديْد!

فقال: نُؤجّله للصّباح، فقلتُ: الأمرُ لا يقبلُ التّأجيل.

فقام فزعًا مِنْ نومه، وصحبتُه إلى المجلس، وكانَ فيه جُثمانٌ مُكفّنٌ بثوبٍ أبيض، وعليه أثرُ الدّم.

فقال: ما هذا؟ فقلتُ: رجلٌ دخل بيتنا في غيابك، واعتدى على أُمّكَ وأُختكَ، فأزهقتُ روحَه، والآن أُريدُ أنْ أتخلّص من جُثّته، وكما قيل: فالصديقُ وقتَ الضّيق.

استدعِ مِنْ أصدقائك مَنْ تراهُ أمينًا كاتمًا للسّر، يفزعُ معنا بشرطِ ألّا يسألَ عنْ أيّ شيء، فهلْ في أصدقائك من تثقُ فيه إلى هاته الدّرجة؟!

فقال: نعم، أطرفُ واحدٍ منهم يأتيك سعيًا بدون أنْ يتردّد، فقال أبوه: حسنًا، لا تتأخّ عليّ، أُريدُ الانتهاء منه قبل أنْ ينكشف أمرُه.

فانطلق الولدُ عند الأقْربِ منهم دارًا، والأفْضلُ في نظرة، فلّما قصّ عليه القصص تبرّأ مِنْ صداقته، ولا يُلام على ذلك، فراحَ للثّاني، والثّالث، والعاشر، فكُلّهم يردُّ عليه بالرّد نفسِه، ولمْ يستجب منهم أحد.

فعاد الابن إلى أبيه يجُرُّ أذْيالَ الخيْبة، ويَا للأسف؛ لقد استسمنَ ذا ورم، ونفخَ في غيرِ ضُرّم!

فقالَ أبوه: ليسَ لي صديقٌ سوى فُلانًا، اذهب إليه وأخبرهُ الخبر، واطلب منه أنْ يأتيَنا في أقرب وقتٍ ممكن، حتّى ولو كانَ بعد الفجر.

فذهب الابن إلى صديقِ أبيه، وكانَ يتوسّمُ فيه الخوفَ والحَذر؛ لأنّه الأعْقلُ، والأبعدُ عن التّهور، والأعمقُ في إدراك عواقب الأمور.

فسلّم عليه في ساعةٍ مُتأخّرةٍ من اللّيل، ففزع من مجيئه وقال له: خيرًا إن شاء الله، ما الّذي جاء بكَ الآن؟ فقالَ: أبي يدعوك لأمر كيت وكيت، وأكّد بقوله: " حتّى ولو كانَ بعد الفجر".

فقال: مثلُ هذا الأمر لا يُؤجّل إلى الصّباح، سأنطلقُ معك حالا، فصُعِقَ الولدُ من استجابة صديقه الوحيد.

فلمّا وصلا للبيت، التقى الصّديقُ بصديقه، فسأله ما خبرُكَ؟ وأين وضعتَ المقتول؟ فأشار إليه هذا هو، اكشف عنه، وإذا به كبشٌ قدْ ذبحه، وسلخه، وكفّنه.

فقال: ما الأمرُ يا صديقي؟ فردَّ عليه وقال: عشاؤنا اللّيلة، أنا، وأنت، وابني فلان، وسأُخبرك بالقصّة كاملة.

فعندها عرف الابن أنَّ أصدقاءه العشرة لا قيمة لهم عند الحاجة!

فوائدٌ تربويّة:

١- في القصص الرّمزية تربيةٌ، وتعليمٌ، وعظيم بيان.

٢- القصّة تُرسّخ المعلومة، وتُوصل الفكرة بأسرع وقت.

٣- قناعةُ ابنك قدْ لا تستطيعُ تغييرها بالإقناع، والوعظ والإرشاد، ولكن دَعْهُ يخوضُ التَّجربة ليصل الى القناعة بنفسه، حتَّى وإن كلّفتهُ أعزَّ ما يَمْلكُ.

المُشَاركةُ في المِهَن والصَيَانَةُ في المَنْزِل

قلةُ ذاتِ اليد، وكثرةُ العِيَال، ونُدرةٌ الأيدي العاملة ذاكَ الزَّمان[٢٨]؛ جَعَلتِ النَّاس يعملون في المِهَن اليَدويَّة بأنفسهم، فلَا حاجة لهم إلى البنَّاء، والنجَّار، والسَّبَّاك، والكهربائي.

فالأعمالُ اليسيرة الطَّارئة يُحسِنُها كُلُّ أحد، سواءً فيما يخصُّ المنزل: كالسَباكة والنَجارة، أوْ فيما يخصُّ السَّيارة: كتغييرالبواجي (شمعات احتراق)، والبلاتين (مُنظَم شرارة احتراق)، وأقمشة الفَرامِل، والزُّيوت، وغيرها.

ففي كُلّ بيتٍ تتوفَّرُ الأدوات والعِدَّة اللَّازمة للصَّيانة، فلا يضطرُ الواحدُ للعَامِلِ بأُجرةٍ إلَّا نادرًا.

لذا فالأبناء يتعلَّمون مِنْ آبائهم بالمُحاكاة والمشاركة، ممَّا يُساعدهم في معرفة أسماء الأدوات، وما هيَّتها، وفيمَ تستخدم، وكيف يُتعامَلُ معها، وذلك أكْسَبهُم خبرةً ومهارةً تنتقلُ من جيلٍ إلى جيل.

فوائدٌ تربويَّة:

١- أعظمُ فضلٍ على الأبناء أن تُنقلَ لهم الخِبرات؛ ليبدأ الابنُ من حيثُ انتهى أبوَيْه، ويزيدُ عليها مِنَ المعارف ما يجعلُ عُمُرهُ امتدادًا لأعمارهم، وأعماله في موازين حسناتهم.

٢- تعليم الأبناء على الأجهزة والمُعدَّات مِنْ حيثُ: ماهيَّتها، وفكرتها، ومعرفة أجزائها، تنمي لديهم مهارات التَّفكير، والتَّحليل، والتَّركيب، والابتكار، والإبداع وغيرها.

---

[٢٨] في عام ١٤٠٠هـ وما قبله، وقبل أن ينطلق صُـندوق التَّنمية العقاري، كان لا يوجدُ عمالة إلا نادرًا، وبعد انطلاق الصُندوق، وتسهيل القروض للمواطن، فيحصلُ على القرض، ويسدّد منه ٧٠٪ فقط على مدار ربع قرن، عندها كثرت المُخطَّطات السَّـكنية، وشرع النَّاس في بناء المسـاكن الخاصَّـة، واحتاجوا معها إلى أيدٍ عاملة، وفدت من بلاد شتَّى.

الاتصالُ مِنْ سِكّين

كان التعليمُ والتدريبُ الذي تلقيتُه من والدي سببًا في اكتسابي مهاراتٍ عمليّة؛ فمعرفتي بماهيّة الأشياء قادتني إلى فضولِ الفكّ والتركيب والابتكار، فأصبحتُ أترجم المعرفةَ النظريّة التي أتلقّاها في المدرسة إلى تطبيقٍ عمليّ. فالنظريّةُ بلا تطبيقٍ تظلُّ عرجاء.

فما نظرتُ للأشياء نظرةً سطحيّة، بل كنتُ أرغبُ في معرفة ماهيّتها، وكُنْهِهَا، حتّى تَكَوَّنَ لديَّ حدسٌ أعرفُ به أيَّ قطعةٍ أجدُها مُلقاةً على قارعة الطّريق، فأحدّدُ ماهيّتها، وآليّةُ عملها، وأعرفُ فيمَا لوْ كانتْ جزءًا من ماكينة، أوْ مضخّةِ ماء، أو جزءًا من مُحرّك.

وقد يظُنُّ البعضُ أنَّ هذا الأمرَ لا قيمة له، لكنّه في الحقيقة هو الأساسُ لمهارة الفَكّ، والتّركيب، وإيجاد البدائل، ومعرفة أُصول الأشياء، وأساسيّات عملها، فمعرفةُ ماهيّة الشّيءِ الّذي أمامك، وآليّة عمله، يُعطي بُعدًا آخر في الخروج بفكرةٍ مختلفة.

وعلى سبيل التّطبيق العمليّ، ففي عام ١٤٠٥هـ، خرجنا في نُزهة عائليّة لمنطقة الشّفا بالطّائف، وكُنّا ستّة عوائل، فجلسنا في مكانٍ فيه خطٌّ أرضيٌّ للهاتف، ولكن لا يوجدُ معنا جهازُ الهاتف.

وعادةً ما أصطحبُ معي جهازين: أحدُهما عند الرّجال، والآخر عند النّساء، فخدمة الاتّصال مُتوفّرة، أمّا جهاز الهاتف الأرضيّ فأُنسيته في المنزل.

ولم يكن أمامَنا سوى العودةِ للمنزل في الطّائف، وكانَ بيننَا وبينه قُرابةُ ثلاثين كيلومترًا، أوْ أنْ يأتي أحدٌ من المتأخّرين عنّا بجهاز هاتفه الأرْضي.

وكان أخي (عبد الكريم) مُتأخرًا لم يحضرْ بَعْد، فكانت فرصةً ذهبيَّة في التَّواصُل معه، ولكن كيف للخطَّة أنْ تتمَّ ونحنُ لا نملكُ هاتفًا؟

قررتُ كسْبَ الوقت، والاتصالُ بأخي بأيّ شكلٍ ليُحْضر الهاتف قبلَ مُغادرة المنزل.

والآن يجبُ عليَّ أن أُفعّل مهاراتي الّتي تعلّمتها، فلكي اتّصل بأخي، عليَّ القيام بالآليَّة الّتي يعملُ بها الهاتف -القرص-، وبالأشياء المُتَاحة عندي.

فأريدُ الحصولَ على سمَّاعة هاتفٍ مُزدوجة -سمَّاعةُ استقبالٍ وفيها لاقِطُ إرسال- ولكنَّها غيرُ مُتوفّرة، والبديلُ سمَّاعةُ مُسجّل السّيارة، وكانت مفصولةٌ لا تعمل، واحتجتُ إلى قرصٍ لتوليد الأرقام، وهو غيرُ مُتوفّر أيضًا، وينوبُ عنه مُشْطٌ من حديدٍ لهُ أسنانٌ عدة، وهو غيرُ مُتوفّر أيضًا، وينوبُ عنه صاجٌ من حديدٍ أجعلُ فيه نقاطُ اتّصالٍ، ونقاطُ عزل.

أحضرتُ الأدوات بمساعدة الإخوة والأخوات وهي: سمَّاعة، سكّين، لاصِق، وسلكُ هاتف فيه خطُّ اتّصال -الحرارة-.

فنظرَ الجميعُ إلى طلباتي بغَرابة، وأنَا مُنهمكٌ في سباقٍ مع الزَّمن، أريدُ أنْ أُدرِكَ أخي قبلَ خُروجه من المنزل.

وبالأدواتِ آنفة الذّكر، استطعتُ الاتّصال به، وأدركتُه قبلَ الخروج، وطلبتُ منه إحضار جهاز الهاتف معَه.

ثمَّ تأتي مرحلةُ التّجريب على نطاقٍ أوْسع، وفي سِعةٍ من وقتي، فاتّصلتُ على صديقي أبُو مجدي الأُستاذ (عبد الخالق الغامديّ)، ولهُ من الاهتمامات مثلُما لي، بل ويتفوّق عليَّ بالمُمارسة، وكثرة الأعمال.

وأخبرتُه بأنِّي أُهاتفُه مِنْ أدواتٍ عدَّدتُها له، وطلبتُ منه التَّفكير في الكيفيَّة، وأقاربي ينظرون إليَّ في دهشةٍ واستغراب، ويظنُّون بأنِّي مُخادعٌ لهم.

أمَّا أبي فواثقٌ من قُدرتي على ذلك، وحتَّى أجعلُ الأمرَ يقينًا عندهم، طلبتُ من أبي أن يُكلِّمَ صديقي، ويُسلِّم عليه، حينها صدَّقني الجميع.

وكانَ الإرسالُ والاستقبال من السَّماعة نفسها، فقال جدّي (نُورِي) -فنِّي تكييف-: وهل بإمكاني الاتِّصال على أهلي في الرِّياض؟! قلتُ: نعم، هاتِ الرَّقم.

اتَّصلتُ على الرَّقم، وأعطيتُه السَّماعة، فسمعَ نغمة الهاتف، وردَّ عليه شخصٌ حدَّثهُ قائلًا: أكلِّمُكَ من الشَّفا، بواسطة سِكّين، وسمَّاعة، ولَاصِق.

ولكَ أن تتخيَّل كيفَ يستوعب المُستقبِل هذه العبارات الَّتي خرجت مِنْ دهشة جدِي (نُورِي)، وهو فنِّي تكييف، وليسَ بأُمِّيّ.

فانتابني في هذا الموقفِ شعورٌ بالفَخْر والإنجاز، وفرحةٌ باستثمار ما تعلَّمتُه مِنْ أبي في تطبيقٍ عمليّ، أثبتُّ فيه لنفسي وأهلي بأنَّ الحاجةَ أُمُّ الاختراع، واستثمرتُ الخبرة في إنقاذنا.

وما كان ذلك إلَّا بفضل الله أولًا، ثمَّ لتعليمنا تعليمًا صحيحًا، يجمعُ بين النَّظرية والتَّطبيق، والمعلومة والسُّلوك، فينتقلُ العلمُ إلى المُمارسة في الحياة العمليَّة.

فوائدٌ تربويَّة:

١- الثِّقة الَّتي يمنحُها الأبُ لابنه تُعدُّ دافعًا لإبداعه.

٢- نظرةُ الرِّضا والابتسامة من الأب لابنه تُشعرهُ بالثِّقة الكاملة.

٣- فخرُ الآباء بأبنائهم يُحفِّزهم لبذل المزيد، وتجويد أعمالهم.

في بَيْتِنَا مُخْتَرِع

عندما يبدعُ المُعلّم في إيصال المعلومة، ويدعمُ المعرفة النَّظريّة بتطبيقٍ عمليّ، وممارسةٍ مُشَاهَدة حينها يبدعُ تلميذُه.

وكُنَّا في الصَّف الدّراسيّ نتلقَّى المعلومات المُبْهَمة فلا ندركُ علاقتها بالواقع، ولَا نعرفُ ما الفائدة المرجُوَّة منها، كالتَّاريخ، والجغرافيا، والتَّجويد الّذي لمْ نكن نعلم أنَّ له علاقةً بالقرآن الكريم.

فما الفائدة الّتي أرجُوها كطالبٍ في المرحلة الابتدائيّة بمعرفة نشاط السُّكان والمناخ، في زمنٍ لا يُوجد فيه تلفازٌ، ولا صُحفٌ بين أيدينا، فثقافتنا تشكَّلت من صفوفنا الدّراسية فحسب.

ومَا فائدتي بمعرفة هيئة الأُمم المُتَّحدة؟! ومقرّها؟ ودورها؟ وكذا مُنظَّمة اليُونسكو؟ ومقرها؟ ودورها؟ وجامعة الدُّول العربيَّة؟! ورابطة العالم الإسلامي؟! الّتي لم يشدُّني فيها إلَّا مقرّها، فلا أعلم ما معنى رابطة، ولماذا هي رابطة وليست هيئة أوْ مُنظَّمة، ولكن كان عزائي أنَّها في مكةَ، فعلى الأقل عندنا واحدةٌ مما ذُكر سابقًا.

وفي يومٍ مَا حاولَ مُعلّم العُلوم أنْ يكونَ الدَّرسُ عمليًّا، فكان عنْ صناعة مُربَّى التُّفاح، في زمنٍ لا نجدُ التُّفاح فيه، فكيف بالمُربَّى؟!

فأحضرَ تفاحًا وقطَّعه إلى مُكعَّباتٍ صغيرة، وأحضرَ مَوْقِدًا بالكيروسين (دافور) وبدأ في العمل، ولكنَّ الوقت لمْ يُسْعِفَه، ولمْ تنجح التَّجربة؛ لأنَّنا لم نذُق طعمَ المُربَّى، فانتهت الحصَّة، وبقيت الصُّورة ناقصةً في أذهاننَا.

ومعلّمٍ آخر شرح لنا ضغط الهواء من الأسفل إلى الأعلى، واستخدم تجربةَ كأسٍ مملوءةٍ بالماء، ومغطّاةٍ بورقة، فقلبَ الكأس رأسًا على عَقِب لكنَّ الماء لمْ ينسكب، فكانَ أشْبَه بالسّحر عندنا، وكان من السَّهل علينا تطبيقها في أيّ وقت.

أمَّا التَّجربة الَّتي شدَّت انتباهي وأذهلتني، فهي تجربة الضَّغط الجويّ من جميع الجهات.

أحضر فيها المُعلّم جالونًا من حديدٍ سعتُه أربعُ لترات، وموقد كيروسين -دافور-، ثمَّ وضع قليلًا من الماء في داخله، فتبخَّر بعض الماء بالحرارة، وطردَ الهواء أوْ مُعظمه من الدَّاخل، فأغلق الجالون، وسكبَ عليه الماء البارد، فانكمشَ الجالون بشكلٍ يشُدُّ الانتباه، فكان الاستنتاج أنَّ للهواء ضغطٌ من جميع الجهات.

وفي نفس اليوم، وبعد أن وصلتُ البيت، أحضرتُ جالونًا فارغًا من أقرب محلّ بنشر، وقمتُ بالتَّجربة بمرأى وبمشاركة أُمّي وأبي وتشجيعهما، فكانتْ أُمّي تُساعدني في تحضير الطَّلبات إكرامًا لي، وهي لا تعرفُ هدفي منها، وأنا لا أعرفُ من أين أتت لي الجُرأة في خوْض التجربة؟ وكيف اعتديتُ على أدوات مطبخها؟ ولماذا ينساقُ الجميع خلفَ رغباتي، وأنَا طالب في الصَّف الخامس الابتدائي؟

فكانت النَّتيجةُ مُذْهِلة، تطبيقٌ عمليٌّ في اليوم نفسه؛ فانتقلتُ من طالبٍ يُشاهد مُعلّمه، إلى مُعلّم يعلّمُ أبويه مفهوم الضَّغط الجويّ من جميع الجهات، بل ويُثبتُه عمليًا.

أذكرُ الموقف وكأنَّه مقطع فيديو أمامي الآن، بدأ بتسخين الماء، وانتهى بانكماش الجالونِ ودهشةِ أُمّي وأبي، ولا شكَّ أنَّ هذا لا يأتي من فراغ، فلا بُدَّ من ثقةٍ في النَّفس يغرسها الأبوين، ولا بُدَّ من وضوحٍ في الرُّؤية، ومساندة والديّ كانت من أعظم المواقف التَّربويَّة لي، فعليهما -رحمة الله- كما ربَّياني صغيرًا.

فوائدٌ تربويّة:

١- حماسُ الوالد والوالدة، وإعطائي الفُرصة في استخدام أدوات المطبخ، ونقلها الى صالة الجُلوس، ومساعدتي في ذلك، كانَ هو الدّعم الّذي ولّد الإبداع والثّقة في نفسي.

٢- سُرورهما بنجاح التّجربة جعلني لا أنساها حتّى السّاعة.

عَرِيْفَةُ القَرْيَة حَامِل

القائدُ النَّاجح مَنْ يتحلّى بالحكمة والبصيرة، ويكونُ قادرًا على الاحتواء والإقناع.

يقولُ والدي: كانَ هُناك خِصَام وتنافسٌ بين قريتين مُتجاورتين، يصلُ إلى مدّ الأيدي وإشهار السّلاح.

وكانت القريةُ تنهزمُ في مواجهة القرية الأخرى، فُكلّما وضعُوا خطةً أو دبّروا أمرًا، احتاطتْ الأُخرى في صدّه، ممّا يدلُّ على أنَّ الأمرَ كُشفَ لهم.

ضاقَ عريفُ القرية ذرعًا، وأدرك أنَّ مِنْ أفراد القرية من يُسرّب المعلومات الّتي كانت سببًا في هزيمتهم، فاجتمع بأفراد قريته وناقشَ معهم تفشّي الأسرار للقرية الثانيّة في كُلّ مرّة، وأنَّ الأمرَ لا يخرجُ من وجود عينٍ تراقبهم.

فجرى حِوارٌ بين أفراد القرية يريدون الإطاحة بالخائن فيهم، وليس بينهم غريبٌ فيشُكُّون بأمره! فأجاب العريفُ بقوله: مَنْ كان فيكم مُتزوّجًا في تلك القُرى، فلَا يفشي سِرًّا لزوجه.

فتعالت أصواتُ المُتزوجين مِنَ القرية الثّانية احتجاجًا وغضبًا على اتّهام زوجاتهم بنقل الأسرار، فأدْركَ العريفُ بأنّهم لن يستوعبوا كلامه، ولمْ يُصدّقوهُ إلّا بحُجّةٍ دامغةٍ فأضمرَ أمرًا.

غابَ العريفُ عن مسْجده فترةً من الزّمن لمرضه، فكانَ طريحَ الفِرَاش، وزارهُ الجميع سائلينَ له الصّحة والسّلامة، لكنَّ مرضه استمرَّ لبضعة أشهر.

وفي جلسةٍ مع زوجه قالَ لها: سأخبرك بسرٍ عظيم، وإنْ لمْ تحفظيه فسيكونُ عارٌ كبيرٌ علينا.

فقالت: إنْ لمْ أحفظْ سِرَّك فمنْ يحفظه إذن؟ فشكرها، وأثنى عليها، وقال: الأمرُ جِدُّ خطير، تشوَّقت لمعرفة السّر؛ فهيَ لمْ تعْهد مِنْ زوجها مثلُ هذا الحرص.

فقال لها: أنتِ تعلمين أنَّ لله في خلقه شُؤون، ولا اعتراض على خلقه، وأنَّه قادرٌ على كُلّ شيء، فخلقَ آدم -عليه السَّلام- من غير أبٍ وأُمّ، وخلق حوَّاء من آدم -عليه السَّلام-، وخلق عيسى -عليه السَّلام- من أُمّ، وخلق بقيَّةُ الخلق من أبٍ وأُمّ مِثْلِي ومثلُك.

فقالت: صدقتَ، وسبحان الله الفعّال لما يُريد، لا يُعجزه شيٌ في الأرض ولا في السَّماء سُبحانه، فقالَ: وقَدْ يخلقُ الله غُلامًا من أبٍ في زَماننا! فقالت: وكيفَ ذلك؟

فقال: تبيَّن لي أنّي حامل بمولودٍ، والله يعلمُ متى تحين ولادته! فاندهشت وصعقها الخبر، فليس من عادته المِزَاحُ بمثل هذا، وليس في عقله خِلَّة حتَّى يتوهَّم حملَه!

فقالَ: أريدُ منْك السّتر عليَّ حتَّى يقضيَ الله أمرًا كانَ مفعُولا، وإيّاكِ أن يطَّلعَ أحدٌ من أهل القرية حتَّى تتبدَّى لنا النّهاية، فوعدت بكتم سرّه وهيَ في ذُهولٍ ودَهْشَة، وأنَّى لها أن تتخيَّل فضْلًا عن أنْ تُصدِّق!

أصابها الذُّعر، ونزلَ عليها الخبرُ كالصَّاعقة، فكتمت الأمرَ بضعة أيّام، فراحتْ تستقي المَاءَ مِنَ البئر -كعادتها-؛ لحاجة البيت والطَّهي والشَّراب، فوجدت أعزَّ صديقاتها تستقي مثلها، فلاحظت الصَّديقة شرودَ ذهنها، بلْ ودُمُوعَها.

فسألتها: ما الذي أبكاكِ يا صديقة؟ ولِمَ كُلُّ هذا الشُّرود؟ أُناديكِ فلا تسمعين، وأسألكُ فلا تُجيبين! فانتابها الضَّحك والبُكاء معًا، فسألتها: ما بكِ؟ يبدو أنَّ في الأمر ما يُضايقك!

وكانَ التَّردُّد مُسيطرًا على المشهد، حتَّى تجرَّأتْ وأخبرتها بعد أخْذ العُهود والمواثيق منها بألَّا تُفشي سرَّها، فأخبرتها الخبرَ الَّذي أصابَ صديقتها بالهلع نفسه، وهي بين مُصدّق ومُكذّب.

غادرتْ صديقتها وهي هائمةٌ على وجهها، والأرضُ على اتّساعها إلَّا أنَّها تضيقُ بها، ولا تدري إلى أين هي ذاهبة!

فانقطع الزُّوار عن العريف منذُ تلك الحادثة، وتمرُّ الأيَّام ولا يزورهُ أحد، وكان يتوقَّع الأمر!

وبعدَ مُضِيّ شهرٍ على الخبر، خرجَ ليُصلّي في المسجد مع أهل القرية، فسلَّم عليهم، وتحدَّث معهم واحدًا تلو الآخر، يسألُ عن أحوالهم، وهم في ذُهولٍ، ولا يردُّ عليه أحد! فبدأ بعتابهم فردًا فردًا قائلًا: أينك يا فُلان، وكنتَ تزورني كُلّ صباح؟ وأنت يا فُلان كنت تشاركني القهوة كُلّ مساء! وأنتَ كنتَ تسهرُ معي! فما خطبُ هجركم لي؟!

فلم يُجبه أحد، لكنَّهم تعلَّلوا بمرضه فقالوا: بلغنا أنَّك مريض جدًّا، وصحَّتُك لا تسمحُ بالزِّيارة.

فقال لهم: عُذركم غيرُ مقبولٍ، فقد مرضتُ بأشدّ من ذلك ولم ينقطع عنّي أحد! فكرَّرَ عليهم السُّؤال، وألحَّ على لَوْمِهم وعِتَابهم؛ ليُفْصِحوا، إلَّا أنَّه لمْ يُجبه أحدٌ حتَّى قال: ومَا المرضُ الَّذي بلغَكم عنّي، وحالَ دونَ زيارتي؟!

فتلعثم القومُ وصمتوا، وإنْ تحدَّثوا فلا يزيدون على قولهم: قيلَ لنَا إنَّكَ مريضٌ، ولا تستطيعُ أن ترى أحدًا، ولمْ يجرؤ أحدٍ منهم على البوْح بما وصَلَه!

فقال: حسنًا لعلَّهُ بلغَكم أنّي حامل؟! فقالوا بصوتٍ واحدٍ: نعم، فقال: أ ويحملُ الرّجل؟! أليسَ فيكم رجلٌ رشيدٌ يأتي ويتأكّد من صحّة الخبر؟!

فأخبرهم الخبر قائلًا: الخبرُ حيلةٌ منّي، وهو عارٍ عن الصّحة، تعمّدتُ إليه لأُبيّن لكم أنَّ السّرَّ الّذي لا يتّسعُ له صدرُك، فلن يتّسع له صدرُ غيرك!

وغضبَ عليَّ من كان له زوجةٌ من تلك القريةِ، وهَا أنَا أمامُكم، وثقتي في زوجتي تفوقُ خيالَكم، وإنّي لأراها في كفّةٍ، وبقيّةُ نساء الأرض في كفّة، مِنْ رجاحة عقلها، وإنّي لمْ أُخبر أحدًا سواها بخبري هذا على الإطْلاق، وقدْ شاعَ في القريةِ كُلُّها.

فهل أجد رجالًا تُعاهدني على كتمِ مُخطّطاتنا عنْ كُلّ أحدٍ، مهما كان الخبر؟!

حينها اتّفق الجميع، وأدركُوا خُطورة الأمر، فتمَّ لهم النّصر، وعاشوا في سلام.

فوائدٌ تربويّة:

١- القائدُ الحكيم يُحسنُ إيصال المعلومة والإقناع بها.

٢- من أرادَ كتمان سرّه فلا يُخبرُ به أحدًا، فكُلُّ سرٍ جاوزَ الاثنين شاعَ، ومن جميل ما قال الشّافعي:

إذا ضاقَ صدرُ المَرْءِ عَنْ سِرّ نَفْسِهِ * فَصَدْرُ الّذي يُسْتَوْدَعُ السّرَّ أضْيَقُ**

الغَامِدِيُّ وضَيْفه العَزِيْز

كانَ لأبي جارٌ غامديٌّ في حَيّنَا، وكانَ كريمًا سمحًا مُحِبًّا للخير، فروى لنَا قصّته قائلًا: أتاني ضيفٌ قبيل المغرب، وهُوَ وقتُ من يريدُ العَشَاء والمبيت، لا سيَّمَا أنَّه قادمٌ من سَفر، وكانَ عزيزًا عليَّ وله مكانة، وعشاءُ البيت المُتواضع لا يفي بقَدْره، فكانت البُيُوت خاويةً من كُلّ شيءٍ سوى ما يكفي أهلَ البيت.

والضيفُ لا يفي بقَدْرِه إلَّا وليمةٌ عشاءٍ فاخرة، وأنا لا أجدُ قيمتها، فالكريمُ في زماننا تلقَّاهُ طَلْقَ المُحيَّا، يُرحّبُ ويُسهّل بضيفه فرحًا مسرورًا، ولكنْ تبقَى في داخله غَصَّة؛ فهُوَ يحملُ همَّ العشاء وقيمته، والضَّيفُ عزيزٌ على قلبه!

قال: استأذنتُه لبعض شأني بعد ضيافة القهوة، وتركتُ معه بعضُ ولدي، فتوجَّهتُ لسوق الغنم وكان قريبًا من بيتي، وأنَا لا أَمْلِكُ ريالًا واحدًا.

فكنتُ أبحثُ في السُّوق عن الرَّجل قبلَ الكبش، فتوجَّهتُ لواحدٍ واخترتُ من غنمه ما راقَ لي، واتَّفقنا على سِعْره بمائة ريال، فقلتُ له: الضَّيفُ على فراشِي والمائة لا أملكها، وهذه شعرةٌ من لِحْيَتي أرْهنُها عندكَ حتَّى يُسدّدُ الله ديني قريبًا، فتحقَّقت فَرَاسَتِي فيه، فأخذَ الشَّعرةَ ولمْ يتردّد، وأعطَاني الكَبْش.

انطلقتُ إلى بيتي مسرورًا بذبح كبشي، وتجهيز عشاء ضيفي، وفكري يصولُ ويجولُ في طريقةٍ أُسدّدُ بها دَيْني، فجلستُ معه لأستمعَ لحديثه، وأنا شاردُ الذّهن لَا أُظْهِرُ ذلكَ له، نتحدَّثُ معًا، وننتقلُ من قصةٍ لأُخرى، ومن موضوعٍ لآخر، وتفكيري معَ سداد دَيْني.

وبينما نحنُ على تلكَ الحال، إذْ بطارقٍ يطرقُ الباب، فتوجَّهتُ لأنظرَ من الطَّارق، فوجدتُ رجلًا يحملُ فتاةً تكادُ أنْ تطيرَ مِنْ بين يديه، وهيَ تصرخُ وتُقاوم وهُوَ مُمسكٌ بها، حتَّى إنِّي أسأتُ الظَّنَّ فيه.

فسألتُه: ما خبرُك؟ فقال: هذه ابنتي، ولَا أدري ما حلَّ بها، فأخبرني النَّاس أنَّك راقٍ، فجئتُ إليك بعد الله.

وفي الحقيقة أنَا لا أُعَالجُ بالرُّقية، ولكنْ عرفتُ أنَّ هذا هو الفرجُ القادمُ من الله، فهو يرزقُ عبدهُ من حيثُ لا يحتسب.

فقلتُ له: تفضَّل ادخُل أنت وابنتك، فأخذتُ منه ابنته وأدخلتُها عند أهلي في الدَّاخل، وبمجرَّد ما أذنْتُ لهُ بالدُّخول، وسمعتْ منِّي أوَّل كلمةٍ تلفَّظتُ بها سكنتْ وهدأت، عندها انطلقت أساريرُ وجْهِي، وتبدَّل حالي، فأيقنت أنَّ فرجَ الله آتٍ، فقلتُ لأبيها: العشاءُ جاهزٌ، وحيَّاك الله أنتَ وابنتك، وبعد العَشَاء تخرجُ من عندي وحاجتُكَ مقْضِيَّة بإذن الله.

فتوجَّهتُ لربِّي وشكرتُه قائلًا: يَا ربِّ أنتَ تعلمُ بأنِّي لا أُحْسِنُ الرُّقيَة ولا أُمَارِسَها، وأنَا أعلمُ بأنَّ حالي لا يخفَى عليك، وأنَّ شِفَاء هذه البنت بيدك، فاللهُمَّ اشفها، وسدِّد دَيْنِي.

انتهى العشاءُ فاستأذنَ الأبُ ليَرى ابنته ويطْمَئِنَّ عليها، فأخرجتُها كفِلْقَة القمر، مُبْتَسمةً وكأنَّ لم يمسَّها الضُّر.

فقال: اطلبْ ما شئتَ، فقلتُ: الشِّفاءُ بيدِ الله، وحاجتي لمائة ريالٍ قيمة هذا العَشاء وأنَا لا أملكها، فإن كنتَ قادرًا عليها فبها ونعمت.

وبالفعل أعطاني ما طلبتُ، وعدتُ لضيفي مسرورَ الحَال، قدْ زالَ همِّي، وانفرجت كُربتي، وقضينَا اللَّيلة في حديثٍ ماتِع، وسدَّدتُ دَيْنِي، واستعدتُ شَعْرَتِي، وأنَا في ذهولٍ من رحمة الله وتدبيره، ولساني يلهجُ بشكره والثَّناء عليه.

فوائدٌ تربويَّة:

١- الحثُّ على الكرم ولا سيَّما إكرام الضَّيف.
٢- حسنُ الظَّن بالله سببٌ في العِوَض الجميل.
٣- بالتَّوكل على الله والثِّقة بكرمه، يكونُ الفرجُ بإذن الله.

الخَاتِمَة

قَدْ تعودُ تلك المجالسُ الّتي كانتْ تجمعُنَا، وتعودُ المائدةُ الّتي كُنّا نتحلّقُ حولها، وتعودُ الضّحكات والنّكات الّتي نتسامرُ عليها في ليلنا، وتعودُ الرّحلات الّتي جمعتنا في صعيدٍ واحد، ويا ليتها تعود!

كُنّا نعيشُ في بيتٍ واحدٍ، فتكوّنت لدينا أُسْرةٌ مُمتدّة مِنَ الجَدّ والجدّات، والعَمّ والعَمّات، والأبناء وأحفادهم، يجْمعُنا مجلسٌ واحد، وشاشةٌ واحدة، والمُتحدّثُ واحدٍ وغالبًا مَا يكونُ كبيرُ العائلة، فإذا ما تحدّث أنْصتَ الجميعُ - وكأنّ على رُؤوسهم الطّير - لحِكْمته، ودُرَرِه، ونصائحه، وتَجَارِبه، ونحنُ في شوقٍ وسعادةٍ غامرة لكُلّ كلمةٍ تخْرجُ مِنْ فِيْه، وإنْ ابتدرَ أحدُنا سؤالًا أنْصَتْنَا للإجابة في لَهْفةٍ، فسقَى الله تلك الذّكريات!

وكانت تلك المجالسُ مُترفةً بقصص الآباء وتجاربهم، وبطولاتُ الأجداد، ومواقفهم، وسيرةُ كفاحهم، والعقبات الّتي اعترضت طريقهم.

وبهذه المجالس تكوّنت ثقافتُنا، وقيمُنا، ومعاييرنا، واستقامت سُلوكيّاتنا؛ فهيَ لم تكن مكانًا للتّرويح وبثّ الأشْجَان فَحَسْب، بلْ كانَتْ ورشةً للتّعليم والتّهذيب، والنُّصح والإرشاد، وفرصةً ثمينةً لمُعالجة السُّلوك الخاطِئ؛ فالجميع يكونُ على سجيّته بلا تصنُّعٍ ولا تكلُّف للمثاليّات، وفي المُقابِل كانت بيئةً آمنةً لتعزيز السُّلوك الإيجابيّ، واستثماره على أوْسَع نِطَاق.

فعلى سُفْرة الطّعام تعلّمنا آداب الطّعام، وعند شُرْب الشّاي تعلّمنا آداب الحِوار، وفنّ الإنصات، وإعطاءُ الكبير حقّه، والاستئذانُ عند المُشاركة في الحديث.

وكُنّا نتحلّقُ حول كبارِنا، نحفظُ منهم القرآن، والأذكار، والقصائد، والأناشيد، والأهازيج، وحِكَمِ الجَدّات وأمْثالِهم، ونسمعُ منهم القصص والأساطير كأبو نيّة وأبو نيّتين، والسُّعليّة، ونُنصتُ لقصص الفقر المُدْقع الّذي عاشُوه، وكيف تغلّبوا عليه، وقصص الطّموح الّتي عاشوها، فنعرفُ هواياتهم، وألعابهم، وحكاياتهم، ونريهم بعضُ مهاراتنا الّتي تعلّمناها في المدْرسة، وبهذا يحصُلُ التّلاقُح في الأفكار، فيُعلّمُ بعضنا بعضًا المُفيدَ والنّافع.

أمَّا في زَماننا هذا فقد اتَّسعَ الخَرْقُ على الرَّاقِع! فغزتْ الفردانيَّة والنَّفعيَّة مُجتمعاتنا، فقلَّ التَّواصل إلَّا في حُدود المنْفعة، فلم نعُد نتسامرُ حولَ شاشةٍ واحدةٍ، بل أصبحتْ شاشَات؛ فلكُلّ فردٍ في الأُسرة جوَّالٌ كفَيّ يتواصلُ من خلاله بالعَالم المرئيّ والمسموع، القاصِي والدَّاني، ولكُلّ عالَمه وعَوَالِمَه الافتراضيَّة.

فحلَّت التطبيقات والمنصات (مثل واتساب، تيك توك، تويتر...) محل التواصل الواقعي المباشر بين الناس، والذي كان يتم من خلال الحضور الجسدي والمصافحة والجلوس في المجالس، ونتيجة لذلك، **فقدت المجالس التقليدية (مجالس العائلة، الضيافة، الحوار) مكانتها ودورها المحوري في الحياة الاجتماعية.**

وأصبحت وسائل التواصل الاجتماعي هي التي **تملك الهيمنة والتأثير.**

لكنها - مع كل ما قدّمته من تسهيلات - كانت سلاحًا ذا حدين؛ فقد **أحدثت فجوة اجتماعية** بين الأفراد، قللت من التواصل الحقيقي، ورفعت من الحضور الرقمي على حساب الحضور الإنساني.

وهنا يأتي السُّؤالُ العريضُ المُمتدّ: هَلْ مِنْ خِطَّةٍ لرأب الصَّدْع؟ وكيف نتكيَّفُ مع هذه التَّقنية دونَ أن ننسلخَ من هُويَّتنا وثقافتنا؟!

والجوابُ أتركُه للقَارئ الكريم، فلكُلّ مِنَّا اهتمامَاتٌ وثقافَات مُتنوِّعة، لكنّي أرى وأطْمح أنْ يكون هناك منصَّةٌ تفاعُليَّة، نلتقي ونتشاورُ من خلالها، وتكونُ لنا قواسمَ مشتركة فيما بيننا، فيشاركُ الأبُ أسرته، وتُشارك الأُم أبناءها، ويشاركُ الإخوة بعضهم بعضًا، فنجعلُ العمل الفرديَّ عملًا جماعيًّا، ونجمعُ الفريقَ من الأقارب والمعارف حتَّى نكونَ على تواصُلٍ ومعرفةٍ بأحوال بعضنا، ونتبادلُ المعرفة مع كُلّ أحدٍ ينفعُنا بِعِلْمه، أوْ ننفَعُهُ بِعِلْمنا، ولَا يضُرُّ أحدُنا الآخر، ولَا يُؤثّرُ علينا بمَا يُخَالِفُ قِيَمَنا.

وختامًا، فالحمدُ لله الَّذي بنعمتِه تتمُّ الصَّالحات، اللهمَّ كمَا أنْعمْتَ عليَّ فزِدْ وبَارِك.

ومِنْ أخصّ النّعم مَنِ ارتبطتْ أسبابهُ بأسباب الكِتَاب وتأليفه؛ (أمّي وأبي وزوجه) فالحمدُ لله الّذي أخْرَجَنِي مِنْ أصْلَابِهم، وأدْخَلَنِي برحْمَتِه في نَسَبِهم، وقَسَمَ لِيْ حظًّا مِنْ قُلوبِهم، وكَسَانِي سِرْبَالًا مِنْ عَطْفِهم، ورزقَنِي بِرّهُم، وأكْرَمَنِي بِتَحْنَانِهم وعَطْفِهم، ونَفَعَنِي بِعِلْمِهم وأدَبِهم وفَضْلِهم.

والحمدُ لله على نِعْمَة (زَوْجَتِي)، ورفيقة عُمْرِي، وسَنَدُ رُوْحِي، ومَصْدَرُ إلْهَامِي، ومُؤْنِسَتِي.

والحمدُ لله على نعْمَة أبْنَائِي، وبَنَاتِي، وأحْفَادِي، وإخْوَتِي وأخَوَاتِي، فاللهُمَّ احفظهم بحفظك، ومُنَّ عليهم بكَرَمِك، واسْتُرهُم بسترك الجميل الّذي لا يَنْكَشف، واشْمَلْهُم بلُطْفِك وفَضْلِك وجُوْدِك، واجعلهُم مِنْ عِبَادَك المُخْلَصِيْنَ، إنَّك جوادٌ كَرِيْم، وبالإجابة حقيقٌ وجَدِيْر.

اللّهُمَّ صلّ وسَلِمْ وبَارِك عَلَى سيّدنا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أجْمَعِيْن.

الفسح للكتاب في
١٤٤٦/٨/١٤هـ
٢٠٢٥/٢/١٣م

خَوَاطِرُ القَارِئ

خَوَاطِرُ القَارِئ

خَوَاطِرُ القَارِئ

خَوَاطِرُ القَارِئ

للتَّواصُل

العُنوان البَريديّ: واصل

٢٦٥٦، حَيّ السُّرور- الطَّائف ٢٦٥٢٤ - ٨٢٥١

المملكة العربيَّة السُّعوديَّة

العُنوان المُخْتَصَر (TADD2656)

@dralieasa

+966-505-703-203

https://dralieasa.com/

dr.ali.easa@gmail.com

المُحتَويَات

المقدمة ٥
وجبةٌ عشاءٍ في تُهامَة ١١
ريالٌ أضاعَ خمسين ١٣
الخَيْبَةِ في سُوْق ١٧
حُصنُ تهامة والعَشاء ٢٠
عَشاءٌ في أسفل العقبة في جُنْح الظلام ٢٢
عيسى وضأنُه ما ضَوَوا ٢٤
هذا عِفْرِيْتُك! ٢٧
عالي وَكْرَةُ الأطفال ٣٤
عالي وكيسُ البَدوِي ٣٧
ريالٌ جلب خمسين ٤٠
ركوبُ سيّارةٍ إلى مكّةَ بأربعة ريال ٤٥
البكاءُ تحتَ الحِمْلِ الثّقيل ٤٨
عِيْدَان تَخْطِفُه الجِنّ ٥٣
عيسى جابَ الدّاعي ٦١
حُلْم ضيف الله ٦٣
طلبُ سداد الدّين ٦٥
موتُ شقيقي أحْمَد ٧١
أُمّي وفيشُ الكَهْرَبَاء ٧٤
النّومُ والفَحْمُ مُشْتعل ٧٦
مَقْهى عِيْسى وسَعِيْد ٧٨
الاعتداءُ على ميزاب البيت ٨٣
الرّفيقُ قبلَ الطّريق ٨٧
نتيجةُ امْتِحَانِ الكَفاءةُ في المِذْيَاع ٨٩
التّقديمُ بمَعْهدِ إعْدَادِ المُعلّمين ٩٤
السّفرُ إلى جَازَان ٩٧

الشَّاهدُ ربّ هذا الهِلَال ١٠١
أبو سَنَد الغاوي ١٠٤
اليمين الغموس ١٠٧
كتابُ التَّوحِيْد ١١٢
حِيْلةُ التَّخلُّص مِنْ ريالين ١١٤
بيعُ أخوهُ في المَشْرِق ١١٧
عَفَارِمْ عَلَيْك سِكَّة مَاشِيَة ١١٩
إعارةُ الضَّمْد ١٢٢
نَقْلُ الحَصَى مِنَ الجَبَل ١٢٤
لَجْنَةُ إصْلَاحِ ذاتِ البَيْن ١٢٧
حَلْوَى الدُّخَّان والغَضَبُ المَقْصُود ١٣٠
أنتَ خيرٌ مِنْ أبِيْك ١٣٢
خَبِيْرُ اللُّغم ١٣٦
دروس زَكاةُ الفِطْر ١٣٨
من كانت له زوجتان فلا يهجُرهما معًا ١٤٠
أَصْدِقاءُ الإبْنِ العَشَرَةُ... وَصَديقُ الأَبِ الوَحِيدُ ١٤٢
المُشَاركةُ في المِهَن والصِّيَانَةُ في المَنْزِل ١٤٥
الاتِّصالُ مِنْ سِكَّتِين ١٤٦
في بَيْتِنَا مُخْتَرِع ١٤٩
عَرِيْفَةُ القَرْيَة حَامِل ١٥٢
الغَامِدِيُّ وضَيْفِه العَزِيْز ١٥٦
الخَاتِمَة ١٥٩
خَوَاطِرُ القَارِئ ١٦٢
للتَّواصُل ١٦٦
المُحتَوِيَات ١٦٧

علّمني أبي

هذا الكتاب صنيعة أبي، وثمرة كده في الحياة، نبض قلبي الأول، ومصدرُ قُوّتي الدائمة، كُلّ حرف هنا مِنْ غَرْسِك، وكُلّ معنى ظل من ظلالك.

إني إذا ضاقَتِ الدُّنيا ذَكَرْتُ أبي
وقلت: رُحماك ربي بالذي فقدا
أبي الذي في سقوطي يَنحَني جَبَلاً
يمد لي قبل كل العالمين يدا
أبي الذي كُلَّمَا قَبَّلْتُ صورتَهُ
شَمَمتُ وَرْدًا وفاضَتْ مُقلتاي ندى
لا ينهك المرءَ إلّا فَقدُ وَالِدِهِ
كَخَيمة ذات ريح لم تَجِدْ عمدا

د. وفاء

Bassmabook
00212771814934
darbassma1@gmail.com